
قافلة الزيت
رمضان - ١٣٩٠ - نوفمبر - ١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد التاسع المجلد الثامن عشر

تصدر شهريا عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة
توزع مجانا

العنوان صندوق البريد رقم ١٣٨٩ الظهران - مملكة العربية السعودية

محتويات العدد

صورة الغلاف

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه »
قرآن كريم

المدير العام : مصطفى حسن الخان المدير المسؤول : علي حسن قبنا ديلي

رئيس التحرير : منصور مدني المحرر المساعد : عوني ابو كشك

رمضان شهر الخير والبركات

لفضيلة الاستاذ عثمان ابراهيم الحقيل

تستقبل الأمة الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها شهرا كريما ، هو شهر رمضان المبارك .. شهر الصوم والرحمة والمغفرة والصبر والمواساة .. شهر ترتفع فيه النفوس المؤمنة عن مستوى الماديات والشهوات الى مكان رحب فسيح من الروحانيات والتأملات ، وتحظى فيه بشتى الدروس والعبر والعظات . كتب الله على المؤمنين الصيام فيه وفرضه ، وجعله أحد أركان الاسلام الخمسة ، وسن فيه قيام ليله ، وحث على الطاعات فيه ، ووعد بمزيد الأجر .. فتضاعف فيه الحسنات ، وتكفر السيئات ، وتستجاب الدعوات ، ويعظم فيه رجاء العباد وتتسع آمالهم . فمن أدى فيه نافلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه .

اختص الله شهر رمضان بمزايا ليست لغيره . فهو سيد الشهور وأفضلها ، اذ أنزل فيه القرآن « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ونصر الله فيه الاسلام وأعزه وأظهره ، وأذل الشرك وأهله وخذله بموقعة بدر الكبرى . وفيه تم فتح مكة المكرمة ، موطن بيت الله العتيق وحرمه الآمن ، فدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قويا منتصرا بعد أن أخرجه منها قومه . وفي رمضان ليلة القدر التي هي « خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم » .

فما أعظمها من حوادث وما أقدسها من مزايا لها شأنها العظيم ، ونتائجها المثمرة البناءة في تاريخ الاسلام والمسلمين . وكلها ، مع حوادث أخرى ومزايا عديدة مما اختص به شهر رمضان ، تؤكد قدسيته وعظيم بركاته وخيراته على الأمة الاسلامية . وفي هذا الشهر المبارك يغفر الله لعباده الا لمن أبى أن يستغفر ربه . وقد دعا فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكرر الدعاء بالابعاد من رحمة الله لمن أدرك شهر رمضان ، فلم يغفر له فيه .

الصيام بين العادة والعبادة

من الناس من يتخذ الصوم مجرد عادة لا أثر لها في تهذيب نفسه وغرس الفضيلة فيها والبعد بها عن المحرمات . ومنهم من يهتم بصيامه ، ويتناسى صلاته ، ولو كان للصوم أثر في نفسه لحافظ على الصلاة . وفي الحديث « رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر » .

فالتقرب الى الله ، بترك الأكل والشرب والشهوة ، لا يكمل الا بترك المحرمات ، والافطار على حلال . فهذا من أقوى الأسباب لاستجابة الدعاء واقبال النفس على طاعة الله وابتغاء مرضاته .

وفي الصيام فوائد صحية ، ففيه اراحة للمعدة التي هي بيت الداء في الجسد . وبعض الناس لا يستفيدون من صيامهم صحيا ، فتجدهم اذا أفطروا أسرفوا في المأكولات والمشروبات ، وحملوا أنفسهم ما لا تطيق . ولو اجتنب الصائم الاسراف في الأكل والشرب عند افطاره لسلمت له صحته ، واستفاد من صيامه في نهاره .

هذا ، وأن أسهل الصيام ترك الأكل والشرب ، فهناك ما هو أعظم منه ، ألا وهو البعد عن قول الزور ، والعمل به . وهو كل قول محرم أو فعل محرم . وفي الحديث « اذا كان يوم صيام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابه أحد أو قاتله فليقل : اني صائم » .

والصيام سر بين العبد وبين ربه فلا يدخله الرياء . ولهذا تولى الله جزاء الصائمين بنفسه تكريما منه للصائم . ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل « كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لي وأنا أجزي به » .

الجود والسهر وقراءة القرآن

وشهر رمضان شهر الجود والتوسعة على المعوزين ، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان . وفي رمضان يؤكد احياء سنة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بمدارسة القرآن الكريم ، وتدبر آياته والعمل به ، وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، واطلاق الألسن بالذكر والاستغفار .

هذا وان صلاة الليل وقيام ليالي رمضان من أفضل القربات عند الله حيث ترجى ليلة القدر ، ولا سيما في العشر الأواخر . ولقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقوم الليل في شهر رمضان وفي غيره ، ويقرأ القرآن قراءة مرتلة ، لا يمر بآية فيها رحمة الا سأل ، ولا بآية فيها عذاب الا تعوذ . فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر . ومما تلقاه الخلف عن السلف صلاة التراويح التي يصليها الصائم في ليله فيجد فيها متعة روحية تزكو بها نفسه وتنهاه عن الفحشاء والمنكر . وينبغي القيام بآداب الصلاة ، فان ركعتين يقرأ فيهما المصلي قراءة صحيحة ، ويحسن الركوع والسجود فيهما ، وتحصل فيهما الطمأنينة والخشوع لأفضل وأقرب الى القبول من ركعات عديدة عارية من آداب الصلاة .

من أحكام الصوم

يقول الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . » في هذه الكلمات من كتاب الله ، يتجلى يسر الاسلام وسماحته في مشروعية الصيام وغيره من فرائض الدين ، وتتضح مقاصده الكريمة ، وأهدافه العظيمة .

فمن كان مقيما قادرا على الصيام تعين عليه أن يصوم ، ومن كان مريضا مرضا لا يمكنه من الصيام ، أو كان الصيام يزيد في مرضه أو يؤخر شفاءه ، أو كان مسافرا ، فلهما الافطار وعليهما القضاء أياما أخر . وفي هذا يسر ورأفة بهما ورفع للمشقة والحرج عنهما . فليس المقصود من الصيام الحرمان ، وانما المقصود هو تحصيل التقوى العامة الشاملة ، وتربية النفوس وتعويدها على الصبر والجلد ، فتسمو عن الرذيلة وتضحي في سبيل الحق والدين ، وتسمو بأرواحها الى الخير والاطمئنان .

واذا كان المرض مما لا يؤمل شفاؤه سقط عن المسلم الصيام ، ووجبت عليه الكفارة : طعام مسكين عن كل يوم ، ومثله الشيخ الكبير العاجز عن الصيام .

وكذلك المرأة الحامل والمرأة المرضع يباح لهما الافطار في شهر رمضان اذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما وعليهما القضاء . فان كان خوفهما على ولديهما فقط وجب على من يقوم بنفقة الولد كفارة طعام مسكين عن كل يوم .

كما حرمت الشريعة على الحائض والنفساء أن تصوما وعليهما القضاء ، وفي هذا رفق بهما ورفع للحرج عنهما .

وحثت الشريعة على تعجيل الفطر واعتبرته احدى فرحتي الصائم « للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه » ، وندبت الى تأخير السحور ورغبت فيه .

كما دعت الى تقديم الفطور للصائم ورغبت فيه ، وجعلت لمفطره مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء ■

من الاعجاز النفسي في القرآن

بقلم الاستاذ عبد الكريم الخطيب

تواجه الرسالة الاسلامية الوجود الانساني كله ، فيما احتواه من زمان ومكان ، وفيما أودع الخالق فيه من مدركات ومشاعر وأحاسيس ، لتقوده الى الحق والخير ، ولتبلغ به منازل الأمن والسلامة في الدنيا والآخرة .

وان رسالة هذا شأنها ، وتلك غايتها ، لا بد أن يكون بين يديها هذا السلطان المبين الذي تسوس الناس به ، وتقيمهم على احترامه والولاء له ، في السر والعلن ، وفي الغيبة والحضور .

والنفس الانسانية – وما يدور في فلكها ، من مدركات ، ومشاعر ، ووجدانات – هي القوة العاملة في الانسان ، والشراع الذي يتلقى مهاب الرياح التي تهب على سفينته ، فتتجه به يمينا أو شمالا . ومن هنا كانت دعوات زعماء الاصلاح ، وقادة الانسانية تتجه دائما الى مخاطبة الانسان من خلال نفسه ، وتلقاه على مستوى فطرته التي فطره الله عليها . ولا شك أن نجاح أية دعوة يدعى الناس الى الأخذ بها ، والتجاوب معها ، مقدور بقدر رعايتها لسرائر النفوس ، وتعرّف الطريق اليها ، وحسن اختيار اللغة التي تخاطب بها .

والقرآن الكريم هو دعوة الله للناس ، وكلماته اليهم للايمان به ، والعمل بشريعته ، والأخذ بأحكامه ووصاياه ، وهو ميراث المسلمين ، والرسول القائم فيهم أبد الدهر ، والحجة الغالبة لكل هوى ، الفاضحة لكل ضلال ، بما في آياته وكلماته من تأثير نافذ الى كل نفس ، آخذ بكل شعور بحيث لا يتأبّى عليه الا من انتكست انسانيته ، وفسدت معالم فطرته . وليس هذا السلطان المتمكن من النفوس للقرآن الكريم ، الا لأنه كلام الله ، الذي خلق هذه النفوس ، وهو القائم عليها ، والعليم بأسرارها ، البصير بمسارب مشاعرها وأحاسيسها .

والدارسون للنفس الانسانية ، والراصدون لأحوالها في رضاها وغضبها ، وفي سكونها وهياجها ، وفي مسراتها وآلامها ، وفي نعيمها وبؤسها ، وفي آمالها ويأسها ، وفي كل ما يعرض لها من شئون الحياة ، وما تتقلب فيه من أحوالها ، يجدون في القرآن الكريم ، أدق وأروع وأصدق ، ما كشف العلم من أسرار النفوس وخفاياها ، في تصوير معجز ، وفي بيان محكم ، وفي صدق مطلق . لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ..

وحسبنا في هذا المقام أن نقف بين يدي مشهد من مشاهد القرآن ، نرى فيه حالا من أحوال النفس ، وموقفا من مواقفها في تلقي حدث من الأحداث ، وتفاعلها به ، ومعالجتها له ..

* * *

الفرار من الخطر ، وطلب النجاة من مواطن الهلاك ، غريزة في الكائن الحي ، يقوم عليها بقاؤه وحفظ نوعه . وانه حين يفقد الكائن الحي فعالية هذه الغريزة ، يفقد الحياة ، في أولى خطواته على طريقها ، سواء في ذلك الانسان ، أو الحيوان ، وحتى النبات .. وأكاد أقول والجماد أيضا ! !

والانسان ، بما فيه من عقل وذكاء ، قد مكن لهذه الغريزة في كيانه ، وأقام منها حارسا يقظا عليه ، ووضع بين يدي هذا الحارس أكثر من سلاح يدفع به أي خطر يقع ، أو يتوقع أن يقع !

وفي الآخرة أهوال تشيب منها الولدان ، وشدائد تأخذ بالنواصي والاقدام . وفي هذا الموقف الرهيب ، وبين يدي هذا الهول المهول ، يساق المجرمون الى حيث يرون رأي العين مصيرهم الذي هم صائرون اليه ، والمنزل الذي سينزلونه .

ان القلوب لتخلع من هذا الهول ، ان كانت هناك قلوب لم تذهب بها مطالع الأهوال ، ولم تفتّتها الآلام والحسرات .. انها حال لا يمكن أن تتصورها العقول ، ولا أن يحيط بها وصف ، لأنها مما لن يقع الا في هذا اليوم العظيم .

وأين المفر ؟ انه لا مفزع من البلاء الا الى البلاء ..

ومع هذا اليأس القاتل ، فان شدة البلاء ، تحمل المجرمين على أن يفزعوا الى أي مفزع ، وأن يتجهوا الى أي متجه .. انها محاولات لا بد منها ، وحركات تجري في مسارب النفس ، دون أن تتخذ لها طريقا عمليا ، حيث اليأس المطبق ، الذي لا يلوح في سمائه المتجهمة بصيص من أمل ، أو لمعة من رجاء !

وننظر في هذه الصورة المعجزة التي صورها القرآن الكريم لمسارب النفوس ، ومجرى الخواطر في زحمة هذا المعترك الضنك ، الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر ، وتزدحم فيه النفوس على الحلاقم. لو قدّر لأدق آلات التصوير أن تدخل الى عالم النفس ، فترصد حركاتها ، وتكشف عن خفاياها ، لما أمكنها أن تأتي بما يقرب من تلك الصورة القرآنية ، دقة ، واحكاما وصدقا ، واحاطة بما تكن الضمائر ، وما تخفي الصدور ..

يقول الله تعالى : **« يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى »** .

إنّ لذعة العذاب لتخرج المرء عن نفسه ، وتجعل أعضاءه يرمي بعضها بعضا ، ويتقي بعضها ببعض . لا شيء هنا يحرص عليه المرء أو يستبقيه لغده . وان أقرب شيء اليه وأعزه الى نفسه ، ليقدمه – في غير وعي – ليدفع به العذاب الذي يرعى في كيانه . وانه ليودّ في تلك الحال ان لو كان بين يديه أبناؤه .. اذن لقدمهم فدية يتّقى بها هذا العذاب ، ولجعلهم دريئة له يتلقون عنه ألسنة اللهب . ولكنه اذ يلقي بأبنائه في السعير ، ثم لا يجد فيهم غناء ، يمد يده الى أقرب الناس اليه بعد أبنائه ، وهي زوجه ، وأم بنيه ، وصاحبته التي سكن اليها ، وتعلق قلبه بها . ولكنها لا تغني عنه شيئا ، فليلق الى النار بأخيه ، ثم أهله

وعشيرته ، ثم بكل من تطول يده من قريب وبعيد .. ثم لا يزال هذا حتى يأتي على كل ما في الأرض من أنفس ومتاع !

ان هذا الترتيب المتتابع في تقديم ضحايا الفداء، لا يمكن أن يقع على هذا الوجه ، الا بحساب دقيق محكم لاتجاهات النفس ، والا بتقدير واقعي لارتباطها الشعوري بكل ضحية تضحي بها في هذا المقام .

وقد يبدو غريبا — في ظاهر الأمر — أن يقدم الانسان أول ما يقدم من ضحايا الافتداء لنفسه ، أعز من لديه ، وهو أبناؤه ، الذين هم فلذة منه ، وبضعة من كيانه .. وقد كان المتوقع أن يضنّ بهم ، أو أن يجعلهم آخر سهم يرمى به في وجه هذا الهلاك الذي يحتويه !

وهذا الحساب انما يجري على هذا الوجه ، حين تكون الأمور على ما ألف الناس ، وحين يكون في الأمر سعة . وهل ينتظر من الانسان في مزدحم هذا الهول أن يعرف ضوابط ومعايير ، أو يرجع الى مشاعر وعواطف ، أو يجد فرصة للاختيار والموازنة ؟ ان أقرب شيء الى الانسان في هذا الموقف ، هو درعه التي يتقي بها لفح هذا العذاب ، ولو كان عضوا من أعضائه ، كما يتلقى بيده — من غير وعي — ما يرمى به في وجهه من قذفة حجر أو ضربة سيف !

ولكن انظر حين يكون في الأمر شيء من السعة ، وحين يكون الانسان خارج دائرة العذاب ، لم يقع فيه بعد . انه يجري على عكس هذا تماما . وشاهد هذا ما نجده في قوله تعالى : **« يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .**

فالانسان هنا اذ يحل عقد الروابط بينه وبين هذه الأعضاء المتصلة به ، يبدأ بأبعدها عنه ، فيحلها عقدة عقدة ، حتى لا يبقى له غير نفسه .

هنا حركة فرار من خطر داهم . وأول ما يلتفت اليه الانسان هنا هو نفسه لينجو بها ، فان راوده الأمل ، ونازعته نفسه الى حمل شيء معه ، كان نظره معلقا بأعز شيء عنده ، فحمل كل ما قدر عليه ، فان هو وجد فرصة النجاة ضيّقة ، تخفف مما حمل ، ورمى بالعزيز دون الأعز ، حتى اذا ضاقت الدائرة فلم تتسع الا لنفسه رمى بكل شيء ، وطلب السلامة لنفسه ، والنجاة بجلده !

ان النفس هنا تأخذ حركة شعورية مع الأهل والأقارب ، على عكس الحركة التي أخذتها في موقع البلاء وقد علق بها ، وأنشب أظافره فيها .. فيفرّ أولا من أخيه ، ثم أمه وأبيه ، ثم صاحبته ، ثم بنيه .. فهذا موقف ، وذاك موقف ، هذا فرار من خطر مطارد ، وذاك صراع مع خطر واقع .. وللنفس مع كل من الحالين حال ، ومع كل من الموقفين اتجاه .

* * *

يقول علماء البلاغة عن العطف الملتزم بالواو : « ان الواو لا تفيد ترتيبا ، ولا تعقيبا ، فهي للعطف الجامع بين المتعاطفات ، دون أن يكون لتقديم المتقدم أو تأخير المتأخر دلالة أكثر من مجرد الجمع مع ما عطف عليه » .

وربما كان هذا حقا ، في مجال الكلام العادي . أما في القرآن الكريم فان الواو تجيء في أغلب مواقع العطف مفيدة الترتيب والتعقيب ، فتجعل للمتقدم رتبة ووضعا غير وضع المتأخر . فهما وان اشتركا في الحكم ، لا تقع التسوية بينهما فيه ، وتلك خاصة من خصائص البيان القرآني ، وسر من أسراره البلاغية .

وهذا أبو بكر — رضي الله عنه — يقيم حجته على الانصار بتقديم المهاجرين عليهم من قوله تعالى : **«والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار»** فيقول لهم : **«أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في الكتاب عليكم»** وقد سلم له الانصار بهذه الحجة ، ولم ينازعوه فيها .

ثم لعل سائلا يسأل : اذا كان هذا الترتيب الذي جاء على الصورتين السابقتين ، لازما ، فلماذا لم يجيء العطف بالفاء ، ليكون ذلك أدل على المراد ، وأبلغ في بيان المطلوب ، وأقطع لكل احتمال ؟

ونقول لعل أول ما يبدو من ايثار النظم القرآني للعطف بالواو هنا ، هو أن العطف بالواو في هذا المقام ، يتسع لتحقيق المعنى الذي تتحقق به الموافقة للواقع ، والمطابقة لمقتضى الحال .. ذلك أن هذا الترتيب الذي جاء عليه النظم القرآني في التخلي عن الأعزاء ، أو في التضحية بهم ، لا يقع بهذا الترتيب ، على تلك الصورة التي تقع في الحياة ، حين يكون للمرء فرصة للاختيار ، فيقدم ويؤخر ، فيما يتخلى عنه ، أو يقذف به واحدا بعد واحد . لكن شدة الهول لا تدع له فرصة لعزل هذه الضحايا بعضها عن بعض ، وانما هو يتخلى عنها جميعا مرة واحدة ، ويقذف بها جميعا دفعة واحدة .. ولكنها مع هذا الحشد لها جميعا ، تأخذ هذا الوضع في الترتيب الذي جاء عليه نظم القرآن . فالعطف بالواو ، وبالواو وحدها ، هو الذي يحقق هذه الصورة المجتمعة المتفرقة في آن ، وذلك لأن الواو لمطلق الجمع من جهة ، وللترتيب بين المتعاطفين من جهة أخرى .. وليس بين متعاطفيها امهال ملتزم ، كما يكون ذلك بين المتعاطفين بالفاء ، أو ثم .

تقول الآيات الكريمة : **« يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه »** فتضع هؤلاء الضحايا جميعا على مذبح الفداء مرة واحدة ، ثم هي مع هذا تضعهم بهـــذا الترتيب فيما يشبه الزمن العدمي !

وتقول الآيات الكريمة : **«يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه »** .. فتفرض على المجرم الفار من وجه العذاب أن يرمي بكل هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، ولكن — وبتدبير معجز — يرمي بهم على هذا الترتيب .. فهو يفر من أهله جملة واحدة ، لا يفصل بين أفرادها زمن ، ولكنها جملة مفصلة ، تمر في أسرع من آنات الزمن !

ولو أن العطف وقع بالفاء ، أو ثم في الموقفين ، لكان في هذا الترتيب فواصل زمنية لازمة ، لا يحتملها الموقف ، ولا يحكيها واقع الحال ..

وبالاضافة الى ذلك فان الطبيعة البشرية في مجموعها ، تجري على هذا الترتيب الذي جاءت عليه الآيات في الموقفين ، في مقام المفاضلة بين الأهل والولد : الابن ، فالزوج الصاحبة ، فالأب ، فالأم ، فالأخوة ، فالأهل والعشير . ولكن هناك حالات خاصة تقضي بأن يكون لبعض الناس موقف خاص من هذا الترتيب ، فيقدّم ما حقه التأخير ، ويؤخر ما حقه التقديم ، لانحراف في التفكير ، أو فساد في الطبيعة أو فتور في العلاقة ، أو غير هذا ، مما يغير وضع العلاقة الطبيعية بين المرء وأقاربه . وانه لو جاء العطف بالفاء ، أو ثم ، لكان هذا الترتيب حكما ملزما للناس جميعا ، أن يأخذوا به ، وأن يجروا عليه ، ولكان غير صادق كل الصدق ، ولوجد من الناس من يخرج عليه . أما العطف بالواو فانه يتسع لقبول مثل هذه الأحوال العارضة على الطبيعة البشرية ، حيث أن العطف بها لا يفيد الترتيب الملزم .. فهي — أي الواو — تفيد الترتيب المطلق ، من جهة ، وبذلك تحقق الحكم العام الذي يجري عليه معظم الناس ، ثم لا تفيد الالزام من جهة أخرى ، فتسمح لذوي الطبائع المنحرفة أن يأخذوا بأي ترتيب يجري مع طبيعتهم ■

الفقه الاسلامي وأثره في القوانين الوضعية*

بقلم الاستاذ علي حافظ

الفقه واصوله

الفقه ، لغة : الفهم . قال جل وعلا : **« وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »** وقال تعالى : **« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » .**

وفي الاصطلاح خص بالفقه « علم فروع الشريعة » ، وسمي العالم به « فقهيا » .

وعرّفت مجلة « الأحكام العدلية » ، التي وضعت في العهد العثماني ، الفقه في المادة الأولى بأنه « علم بالمسائل الشرعية العملية » .

وعرف الفقهاء الفقه بتعريف أتم وأشمل ، فقالوا : « الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية » . ويقصد العلماء بالمكتسب من الأدلة ، اسناد الأحكام — بالنظر والاستدلال — الى مآخذها والمصادر التي تؤيدها ، وتثبتها .

وفي « تاج العروس » للفيروز أبادي أن الفقه ، لغة : الفهم ، واصطلاحا : العلم بالشريعة أصولا وفروعا ، ثم خصص بعلم الفروع ، ويراد به العلم بالأحكام الشرعية المأخوذة من أدلتها التفصيلية .

وللفقه أصول ، ولهذه الأصول علم . وهذا العلم يبحث في الأدلة الشرعية ، واستنباط الأحكام منها . وهذه الأدلة هي أصول التشريع الاسلامي ومصادره ، وهي : القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، والاجماع ، والقياس .

الشرع الاسلامي

الشريعة ، أو الشرع الاسلامي هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى . قال تعالى **« شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا ، والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى »** ، وقال جل وعلا **« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »** ، وقال : **« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها » .**

فالمشرع الأول هو الله . والشريعة الاسلامية ، مصدرا ، واحكاما ، شريعة الهية لم تكن من وضع البشر ، والفقه الاسلامي مقتبس من هذه الشريعة السمحاء . ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان القرآن الكريم وحديث رسول الله هو مرجع الأحكام والقضاء بين المسلمين .

القياس

أما القياس فقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأون اليه عندما يكونون بعيدين عن رسول الله ، وفي أسفارهم . فاذا عادوا اليه عرضوا أفهامهم واجتهاداتهم عليه ، فيقرهم ، أو يخطئهم ، أو يصحح لهم . ويسمون القياس فهما ، أو رأيا أو اجتهادا .

وبعد عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يشاوران الصحابة فيما يشكل عليهما . فان لم يعرف أحد منهم شيئا عن النبي صلى الله عليه وسلم اجتهدا بآرائهما في الحكم بما يشبه أقضية رسول الله ، عملا بالقياس الذي شرعه صلى الله عليه وسلم .

ولنذكر قصة القاضي الصحابي « معاذ بن جبل » رضي الله عنه والتي رواها بنفسه ، كما وردت في « الطبقات الكبرى » لابن سعد . قال معاذ بن جبل : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، قال لي : بم تقضي ان عرض قضاء ؟ قال : قلت : أقضي بما في كتاب الله . قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال : قلت :

---

* المقصود بالقوانين الوضعية هي القوانين التي تسنها الدول للقضايا المدنية والجنائية والحقوقية والادارية وغير ذلك من القوانين .

أقضي بما قضى به الرسول . قال : فان لم يكن فيما قضى به الرسول ؟ قال : قلت : أجتهد برأيي ولا آلو . قال : فضرب صدري ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله .

الاجماع

روى مالك بن أنس عن علي بن أبي طالب انه قال : قلت « يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ فقال : اجمعوا العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » كما ورد في « اعــلام الموقعين » لابن القيم .

وبعد عهد الخلفاء الراشدين وتوسع الفتوح الاسلامية دعت الحاجة الى معرفة ما اتفق عليه فقهاء الصحابة ، وفقهاء التابعين الذين أدركوا أصحاب رسول الله من الثقات ، لأنهم هم الراسخون في فهم الشريعة ، وبذلك أصبـح الاجماع مصدرا من مصادر الأحكام ، فان لم يثبت نقله وروايته في قضاء لجأ الفقهاء الى الاجتهاد والرأي ، وهو المسمى بالقياس ، والاستحسان .

فالاجماع لم يكن مصدرا فقهيا الا بعد عهد الرسالة . وقد سبقه القياس كما تقدم .

وقد اتفق علماء أصول الفقه وأئمة المسلمين اتفقوا بأن نصوص القرآن مقدمة على ما سواها ثم نصوص سنة رسول الله ، ثم الاجماع ، ثم القياس .

اصول ، وقواعد ، واحكام

وقد علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك للمسلمين فقها مدونا ، بل ترك أصولا ، وقواعد ، وأحكاما مبثوثة في القرآن الكريم وفي السنـة المحمدية . وهذه الأصول ، والقواعد ، والأحكام على أكمل ما يتصوره الانسان مرونة واستيعابا لشتى المفاهيم التي يدعمها ويؤيدها العقـل والمنطق ، والعدالة .. وفيها استعداد للتكييف مع الحوادث الكبرى والجزئية ، بحيث يمكن أن يتولد منها فقه عادل لا حدود له .

ولنضرب بعض الأمثال لذلك ، فقد جاء في القرآن الكريم : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » ، « **وان ليس للانسان الا ما سعى** » ، « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » ، « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** » ، « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » ، « **أمرهم شورى بينهم** » ، « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » ، « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** » ، « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** » .

وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا ضرر ولا ضرار » ، « انما الأعمال بالنيات » ، « الولد للفراش » ، « الأمانة مؤداة ، والزعيم غارم » ، « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

فهذه نماذج حية ناطقة من الكليات والنصوص والأصول التي انتشرت في كتاب الله وحديث رسول الله ، وعكف عليها العلماء والفقهاء فكان منها الفقه الاسلامي .

العهد التأسيسي للفقه الاسلامي

ولقد شهدت الفترة الممتدة من القرن الأول الهجري الى أوائل القرن الثاني الهجري عهدا تأسيسيا للفقه الاسلامي ، فقد تفرق علماء الصحابة في أوائل عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في الأقطار الاسلامية ، وسكنوا مختلف الأمصار ، وحملوا معهم الى اليمن ومصر والعراق والشام حديث رسول الله وأحكام الشريعة .

قال ابن القيم : « الفقه انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود في العراق ، وأصحاب زيد ابن ثابت وابن عمر في المدينة ، وأصحاب ابن عباس بمكة ، وكان لكبار الصحابة كعمر ، وابن مسعود ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أثر بالغ في البلاد التي حلــوا فيها ، فتكونت من اجتهاداتهم ، وعلمهم بالشريعة مدارس الفقهاء المختلفة كمدرسة سعيد بن المسيب في المدينة ، ومدرسة عطاء بن أبي رباح في مكة ، ومدرسة ابراهيم النخعي في الكوفة ، ومدرسة الحسن البصري في البصرة ، ومدرسة مكحول في الشام ، ومدرسة طاوس في اليمن .

ومن هؤلاء وأمثالهم ومن جاء بعدهم من تابعي التابعين أخذت مذاهب الفقه بالظهور ، فكل واحد من هؤلاء تأثر بفقه من لازمه من صحابة رسول الله وتابعيهم .

المذاهب الاربعة

ومن أوائل القرن الثاني الهجري الى منتصف القرن الرابع الهجري نشأت مذاهب واجتهادات فقهية ، منها المذاهب الأربعة ، وهي للأئمة : أبي حنيفة النعمان (٨٠ – ١٥١هـ) ، ومالك بن أنس (٩٣ – ١٧٩هـ) ، ومحمد بن ادريس الشافعي (١١٥ – ٢٠٤هـ) ، وأحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ – ٢٤١هـ) .

وفي خلال هذا العهد نفسه بدأ تدوين الفقه الاسلامي تدوينا علميا ، ومن أقدم كتبه كتاب « محمد بن الحسن الشيباني » تلميذ أبي حنيفة ، وكتاب « الموطأ » للامام مالك ، وكتاب « الأم » للشافعي . وبديء في هذا العصر أيضا بتدوين أصول الفقه ، وأول كتاب ألف في علم أصول الفقه « رسالة الأصول » للأمام الشافعي .

ثم بدأ بعد ذلك دور الركود في حركة الاجتهاد ، واعتمد الفقهاء وطالبو الفقه ودارسوه على مذاهب المجتهدين ، ومنها المذاهب الأربعة ، وكان ذلك خلال الحقبة الممتدة من القرن الرابع الى منتصف القرن السابع ، ونبغ في كل مذهب فقهاء كبار تناولوا المذاهب بالدراسة والترتيب والتعليق .

وأدى اعتمادهم على هذه المذاهب الى قفل باب الاجتهاد الذي فتحه العلم والعقل ، والبحث والأمانة والاخلاص على مصراعيه ، وذلك لتقاصر الهمم عن البحث والاستنباط .

وفي الفترة الممتدة بين القرن السابع والثالث عشر الهجريين لجأت الدولة العثمانية الى تأليف لجنة لوضع مجموعة من قواعد المعاملات من فقه مذهب أبي حنيفة الذي كان عليه عمل الدولة ، ورتبت مباحثها على الأبواب الفقهية المعروفة ، وجعلت الأحكام في مواد ليسهل الرجوع اليها ، فكانت مواد المجلة ١٨٥١ مادة .

وفي هذه المرحلة أخذت الأنظمة الغربية وقوانينها تغزو بلاد المسلمين ، وفتن بها المسلمون بجهلهم بكنوز فقههم القضائية من جهة ، ولشغفهم بالجديد الوافد دون دراسة وتفهم . ولما أخذ المسلمون يدرسون القوانين الوضعية ويقارنونها بالفقه الاسلامي ، عرفوا ما في هذا الفقه من خصوبة وقدرة ، فأخذوا يدعون للرجوع اليه ، ونبذ القوانين الوضعية .

وزن الفقه الاسلامي في العالم

وفي عام (١٣٧١هـ – ١٩٥١م) عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمرا في كلية الحقوق ، بجامعة باريس للبحث في الفقه الاسلامي تحت اسم « أسبوع الفقه الاسلامي » برآسة المسيو « ملو » أستاذ التشريع الاسلامي في كلية الحقوق بالجامعة نفسها ، دعت اليه عددا من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية ، ومن الجامع الأزهر ومن المحامين

الفرنسيين والعرب وغيرهم ، ومن المستشرقين . وقد حاضر المؤتمرون في خمسة موضوعات فقهية رئيسية عينها مكتب المجمع الدولي للحقوق المقارنة في الحقوق الخاصة والعامة (المدنية ، والجنائية ، والاقتصادية ، وفي تأريخ التشريع) . وكانت تلك الموضوعات تتلخص في اثبات الملكية ، والاستملاك للمصلحة العامة ، والمسؤولية الجنائية وتأثير المذاهب الاجتهادية بعضها في بعض ، ونظرية الربا في الاسلام . وفي أعقاب كل محاضرة كانت تجري مناقشات على مستوى علمي واسع بين المحاضر والمؤتمرين .

وفي احدى المحاضرات وقف أحد المؤتمرين ، وهو نقيب المحامين السابق في باريس ، وقال : « أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامي وعدم صلاحه أساساً تشريعيا يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء » .

وقد اختتم المؤتمر وخرج المؤتمرون بالاجماع على هاتين النقطتين :

- ان مبادىء الفقه الاسلامي لها قيمة تشريعية حقوقية لا يمارى فيها .
- وأن اختلاف المذاهب الفقهية تنطوي على ثروة كبيرة من المفاهيم والمعلومات والأصول الحقوقية التي تتيح للفقه الاسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

وأعلن المؤتمرون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الاسلامي يتابع أعماله كل سنة ، وأن يكلف مكتب المؤتمر للموضوعات التي أظهرت المناقشات بضرورة جعلها أساسا للبحث في الدورة القادمة . ورأى المؤتمر أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الاسلامي يسهل الرجوع الى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الأسلامية وفقاللأساليب الحديثة.

وقامت الجمعية الدولية للحقوق المقارنة بتلخيص وقائع الفقه الاسلامي وما دار فيه من بحوث ومناقشات مع التعليق عليه بما يظهر أهميته الكبرى في عالم القانون ، ونشرت هذه الخلاصة في العدد الرابع من السنة الثالثة من « المجلة الدولية للحقوق المقارنة » الصادر في أكتوبر — ١٩٥١ ، كما نشر معهد الحقوق المقارنة بجامعة باريس نصوص المحاضرات مع مناقشاتها في كتاب خاص أصدرته مكتبته في مجموعة مسلسلة للبحوث القانونية سنة ١٩٥٣ باشراف المسيو « ملو — Millot » رئيس المؤتمر .

تأثر القوانين الوضعية بالفقه الاسلامي

وبعد ، فهذه لمحة عابرة وسريعة عن الفقه الاسلامي منذ نشأته حتى اليوم . بقي أن نعرف هل تأثرت القوانين الدولية الموضوعة بالفقه الاسلامي ؟ .

من المعروف ان الرومانيين وغيرهم من الدول المندثرة كانت لهم حضارات قد بلغت الأوج في زمانهم . ومن المعروف أيضا انه عندما أشرقت شمس الاسلام كانت هذه الحضارات مندثرة ، مع دولها . فجاء الاسلام بمبادئه وتعاليمه وحضارته ، وازدهرت حضارة الاسلام ، وفتحت الجامعات في قرطبة وبغداد وغيرهما من عواصم الدولة الاسلامية ، وكانت أوربا وقتئذ ترزح تحت دياجير الجهل ، فبهرها نور حضارة الاسلام الساطع ، وأوفدت طلابها لينهلوا من معين هذه الحضارة . وهذا الاقتباس الذي اقتبسته أوربا عن الحضارة الاسلامية كان قاعدة انطلقت منها حضارتها التي نراها اليوم .

وبنت أوربا هذه القاعدة على رصيد العلم والمعرفة الذي انتهله طلابها من معين الجامعات الاسلامية ، وعلى ما ترجم من كتبهم في الرياضيات والفلك والأدب والدين ، وغير ذلك من العلوم المختلفة .

ولسنا نشك في ان بعض كتب الفقه الاسلامي وأصوله كانت من بين الكتب التي ترجمتها النهضة الأوربية .. وترجمة هذه الكتب تؤدي حتما للاقتباس منها في القوانين الدولية الموضوعة ، فمن المستحيل أن يتركوا هذا الكنز القضائي الحقوقي بأصوله وكلياته وتعاليمه الخالدة العادلة دون الاستفادة منه .

ومما ذكره أحد خبراء الشريعة الاسلامية والقوانين الدولية الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله في كتابه « التشريع الجنائي مقارنا بالقانون الوضعي » الصادر عن مطبعة دار العروبة سنة (١٣٨٣هـ — ١٩٦٣م) بالقاهرة ليعتبر دليلا على أن القوانين الدولية الموضوعة اقتبست من التشريع الاسلامي وفقهه وتأثرت به . قال الأستاذ عبد القادر عودة في الجزء الأول من كتابه :

« ان القوانين الوضعية بالرغم مما انطوت عليه من آراء واستحدث لها من مبادىء ونظريات لا تزال في مستوى أدنى من مستوى الشريعة الاسلامية .

وان بعض رجال القانون يزعمون بأن القسم الجنائي في الفقه الاسلامي لا يصلح للتطبيق اليوم ، ولا يبلغ مستوى القوانين الوضعية ، وان هذه عقيدة خاطئة مضللة انبثقت عن التحامل والجهل بأحكام الشريعة الاسلامية الجنائية جملة وتفصيلا .

وان الشريعة الاسلامية تتفوق على القوانين الوضعية تفوقا عظيما في المسائل الجنائية عامة ، وان القسم الجنائي صالح كل الصلاحية للتطبيق في عصرنا الحالي وفي المستقبل ، كما كان صالحا كل الصلاحية في الماضي .

وان رجال القانون يرجعون للشريعة مجبرين في قليل من المواضيع المدنية لأن بعض نصوص القانون المدني التي تحكم المواضيع أخذت عن الشريعة الاسلامية .

وانه مر على الشريعة الاسلامية أكثر من ١٣ قرنا تغيرت خلالها الأوضاع أكثر من مرة ، وتطورت الأفكار والآراء تطورا كبيرا واستجدت من العلوم والاختراعات ما لم يكن يخطر على خيال انسان ، والشريعة الاسلامية لم تقبل التغيير والتبديل ، وظلت قواعدها ونصوصها أسمى من مستوى الجماعات وأكفل بتنظيم وسد حاجاتهم وأقرب الى طباعهم وأحفظ لأمنهم واطمئنانهم ، بينما تغيرت قواعد القانون الوضعي ونصوصه أكثر من مرة لتلائم الحالات الجديدة وظروفها ، بحيث انقطعت العلاقة بين القواعد القانونية الوضعية الجديدة وبين القواعد القانونية الوضعية التي كانت تطبق قبل ذلك التطور . »

وهذه شهادة التاريخ الرائعة للشريعة ، وليس أروع منها الا شهادة النصوص ومنطق النصوص التشريعية الاسلامية التي جاءت من يوم نزولها بأحدث النظريات التي وصل اليها أخيرا القانون الوضعي . فقد بلغت هذه النصوص التشريعية من السمو والعموم والمرونة كل مبلغ ربما ليس بعده زيادة لمستزيد أو خيال لمتخيل ، ومنها :

الشورى : فقد قررت الشريعة الاسلامية الشورى كمبدأ ، وتركت لأولياء الأمور في الجماعة أن يضعوا معظم القواعد اللازمة لتنفيذه حسب الزمن والمكان والجماعات ، وجعلت لأولياء الأمور معرفة رأي الشعب عن طريق رؤساء الأسر والعشائر ، أو عن طريق ممثلي الطوائف أو بأخذ رأي الأفراد الذين تتوفر فيهم صفات معينة ، أو بطريق التصويت المباشر ، أو بطريق التصويت غير المباشر . فلأولياء الأمور أن يسلكوا أي طريق آخر يرون أنه أفضل من غيره

في التعرف الى رأي الجماعة ، شريطة أن لا يكون في ذلك ضرر ولا ضرار لمصالح الجماعات والأفراد ، أو للنظام العام . ولتطبيق هذا المبدأ قواعد أساسية توجب الشريعة اتباعها ، منها : أن تكون الأقلية التي لا يؤخذ برأيها أول من يسارع لتنفيذ رأي الأغلبية باخلاص ، باعتباره الرأي الواجب الاتباع ، وان تدافع عنه كما تدافع الأغلبية ، وليس للأقلية أن تناقش رأيا اجتاز دور المناقشة ، أو تشكك في رأي وضع موضع التنفيذ .. كما حصل في معركة « أحد » عندما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته في الخروج للعدو من المدينة أو البقاء في المدينة ومحاربته وهم فيها . فلما رأت الأغلبية الخروج ، وكان رأي رسول الله مع من قال بالبقاء ، كان عليه السلام أول من بادر الى تنفيذ رأي الأغلبية. فنص « وأمرهم شورى بينهم » عام الى أبعد حدود العموم ، مرن الى أبعد حدود المرونة بحيث يمكن تطبيقه في كل زمان ومكان ، ولا يضيق بما يمكن أن يستجد من أحوال وحالات ، وقد سبقت الشريعة الاسلامية بهذا المبدأ كل القوانين الدولية الموضوعة . وأول قانون وضعي اعترف به بعد الشريعة الاسلامية هو القانون الانكليزي في القرن السابع عشر بعد أن قررته الشريعة الاسلامية بأحد عشر قرنا . ثم قرره القانون الفرنسي بعد ذلك ، ثـم انتشر المبـدأ في القوانـين الدولية الوضعية .

الطلاق : وأباحت الشريعة الاسلامية الطلاق للرجل ، كما أباح للمرأة أن تطلب الطلاق من القضاء وتطلق من زوجها اذا أثبتت انه يضارها ضررا ماديا أو أدبيا ، أو كان لا يؤدي لها ما توجبه الشريعة الاسلامية على الزوج . وقد قررت الشريعة الاسلامية هذا المبدأ منذ أكثر من (١٣) قرنا ، بينما لم تعترف به القوانين الدولية الموضوعة الا في القرن العشرين بعد أن تأكدت أن تقرير حق الطلاق نعمة على المتزوجين ، وانه الطريق الوحيد لانقاذ الزواج الفاشل .

الخمر : وحرمت الشريعة الاسلامية الخمر ، بينما أثبت العلم اليوم أن الخمر مفسدة عظمى ، وانها تهدم الصحة وتضيع المال وتضعف النسل والعقل ، وتضر بالانتاج ، فأخذ العقلاء ورجال القانون الدولي يدعون لمنع الخمر ، وألفت الجماعات والهيئات لبيان مضارها ومفاسدها .

الدين: كتابته واملاء المدين

الشهادة: تحملها وأداؤها:

مجموعة من النظريات والمبادىء التشريعية الاسلامية جاءت في كتاب الله العزيز . قال جل وعلا :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علم الله فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما ، فتذكر احداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح الا تكتبوها . واشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد . وأن تفعلوا فانه فسوق بكم » .

فالشريعة الاسلامية قررت كتابة الدين في القرن السابع الميلادي ، والدول بدأت ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد اشترط القانون الفرنسي الذي أخذت عنه معظم القوانين الأوربية ان يكون الدين مكتوبا اذا زاد على مقدار معين .

وقد قررت شريعة الاسلام أن يملي العقد الطرف الذي عليه الحق الضعيف لتحفظ به حقوقه ، ولتحميه من التورط ، ولتكون شروط العقد معلومة له حق العلم ، وليقدر ما التزم به ، فلا يستطيع القوي استغلال نفوذه ، فيشترط على الضعيف شروطاً غير عادلة . وهذه الحالة التي عالجتها الشريعة الاسلامية استعصت على القانون الوضعي وأخذ العمال يعالجونها بتأليف النقابات ، ويرون أن حل مشاكلهم لا يتأتى الا اذا كان لهم حق املاء شروط العمل . وقد توصل القانون الوضعي لحل بعضها اليوم ، ولكنه عجز عن حل المشكلة جذريا ..

وحرمت الشريعة على الانسان أن يدعى للشهادة فيمتنع عنها ، أو أن يشهد واقعة فيكتمها ، أو يذكرها زورا على غير حقيقتها . والقوانين الدولية الوضعية تأخذ — اليوم — بتحريم شهادة الزور ، أو كتمان الشهادة ، ولكنها لم تصل بعد الى تحريم الامتناع عن تحمل الشهادة . والمصلحة العامة تقضي بالتعاون على حفظ الحقوق وتسهيل المعاملات للناس . والامتناع عن تحمل الشهادة يضيع الحقوق ، ويؤدي الى تعقيد الأعمال وبطئها .

وقال « غوستاف لبون » في كتابه « حضارة العرب » : ان معايير النجاح التشريعي التي نقصد بها وسائل التقدم والتأخر في المرتبة الاجتماعية كانت واحدة في كل مكان يقع داخل حدود الاسلام .

ويعتبر « ليفي أولمان » الأستاذ بكلية الحقوق في باريس ، الشريعة الاسلامية في المعاملات مصدرا حيا للقانون ومناطا للحق في أطواره المختلفة .

وقرر « ازيكو أنساياتو » : ان الشريعـة الاسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية المقتبسة من اشتات المصادر ، ويقول : « ان الشريعة الاسلامية تعطي العالم أرسخ الشرائع ثباتا . »

وينصح الأستاذ « بيوكازيلي » رجال القانون بالأخذ بمبادىء الشريعة الاسلامية ، ويقول : « ان ذلك لأن القانون في الاسلام أسس من البدء تأسيسا مباشرا على الوحي الآلهي . »

وهكذا يتبين لنا ان القوانين الدولية الوضعية تأثرت بالفقه الاسلامي واقتبست منه ، وان هذه القوانين لتتحدث بذلك وتعلن دون خفاء اقتباسها وتأثرها بالتشريع الاسلامي وفقهه ■

مراجع البحث : « القرآن الكريم » و « الحديث النبوي الشريف » ، و « المنتهى » في فقـه الامام أحمد بن حنبل ، و « ابن عابدين » في الفقـه الحنفي ، و « اعـلام الموقعين » لابن القيم ، و « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، و « تاج العروس من شرح القاموس » ، و « الفقه الاسلامي في ثوبه الجديـد » لمصطفى أحمـد الزرقاء ، و « تـاريخ التشريع الاسلامي » للخضري ، و « التشريع الجنائي مقارنا بالقانون الوضعي » لعبد القادر عودة ، و « شرح مجلة الأحكام العدلية » لمحمد خالد الأتاسي ، و « القانون الدولي العام » لعلي صادق أبي هيف ، و « فلسفة التشريع في الاسلام » لصبحي المحمصاني ، و « الجرائم في الفقه الاسلامي ، دراسة فقهية مقارنة » لأحمد فتحي البهنسي ، و « الاصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر .

الحياة والإنسان بين الذرّة والمجرّة

إنّ وُجودَ كَونٍ، كالكَوْن الذي كَشَفَتْهُ الأرْصَادُ والحِسَابَاتُ الفَلَكيّة الحَديثَة، المُتآزِرَةُ على تنوّعِها، وَالذي يَفوق حُدودَ التصوّرِ في امْتِدادِهِ وَفَحْواهُ وَخصائِصِ أجْزائِه الكُبْرَى وَالصُغْرى، يُثيرُ مَسْألةً بالِغَةَ الخُطورَة، هِيَ أصْلُهُ ونَشأتُه وتَطوّرُهُ ومُسْتَقبَله.

بقلم الدكتور فؤاد صروف

في عباب الزمان

فيما كان العلماء مكبين على الدراسات الكونية الرائعة ، تبيّنوا ظاهرة أوقعتهم في حيرة ، هي ظاهرة الحيود الى الأحمر (١) ، التي دلّتهم على تباعد المجرّات عنا ، وتباعد بعضها عن بعض بسرعات مذهلة ، فتعاون علماء أعلام ، من المختصين بالرصد والتصوير والحلّ الطيفيّ والحساب الرياضي ، على التثبّت من هذه الظاهرة ، ثم على تعليلها وتعليل ظاهرات أخرى بها . وقد ذهب هؤلاء العلماء ، بقيادة أفراد منهم ، وبالاستناد الى أسباب كثيرة ، فيزيائية ورياضية ، الى أن ظاهرة الحيود الى الأحمر ، وما تدل عليه من تفرّق المجرّات وتباعدها ، دليل على كون غير مستقر ، آخذ في التمدّد . وقد قال « لوفيل » ، مدير المرصد الراديوي في « جودرل بانك » بانكلترا : انه اذا أخذنا صورة التمدد هذه ، وعكسناها ، أي عدنا الى الزمن السابق على زمننا ، قلنا ، بالمنطق وحسب ، ان هذه المجرات كانت منذ مليون سنة ، أو أكثر ، أقرب بعضها الى بعض مما هي الآن . ونحن اذ ننظر اليها اليوم ، بأمواج ضوء واصل منها الينا ، انما نراها كما كانت ، عندما انطلق هذا الضوء منها ، منذ زمن يقاس طوله ، بطول المسافة الضوئية التي يقطعها منها الينا . وقد بيّن علماء الرياضة العالمية في الفلك الفيزيائي أن المادة التي نشأت منها هذه المجرّات المتباعدة كانت محتشدة في حيّز ضيّق – بالقياس الفلكي – منذ عشرة آلاف مليون سنة .

أفيكون هذا الرقم – عشرة آلاف مليون سنة – هو عمر الكون ، أي مدى امتداده في عباب الزمان ؟ واذا كان ذلك كذلك ، فكيف بدأ الكون كيانه بعد أن أوجده الباري عز وجل ؟

النظريات الغالبة نوعان ، أحدهما قائم على مبدأ « الكون المتطوّر » ، والثاني ، على مبدأ « الكون المتصف بالخلق المستمر » ، الذي يوصف

---

(١) أساسها مبدأ « دوبلر » الذي طبق اولا في عالم أمواج الصوت . فصفير القطار المتجه الى المراقب يعلو ، لأن أمواج صوته تتلاحق في مسافة تتقاصر ، فتقصر الأمواج فيرتفع الصوت . أما القطار المبتعد فينخفض صفيره لسبب معاكس . وعند تطبيق هذا المبدأ على الضوء في الدراسات الطيفية ، بدا أنه اذا وجد في ضوء واصل من جسم مضيء ، خطوط الطيف تحيد الى الأحمر ، فهو جسم آخذ في الابتعاد ، ومقدار الحيود يدل على السرعة . فلذلك حين تبين الراصدون في طيوف المجرات الخارجية حيودا الى الأحمر قاسوه ، فقالوا انها تبتعد عنا وبعضها عن بعض بسرعة مذهلة .

أيضا بـ « الحالة الثابتة » . ولكل من النظرتين ، طبعات منقحة ، تختلف احداها عن الأخرى في التفاصيل ، ولا تختلف في الأصل .

فالعالم « غامو » يذهب الى أن الكون بدأ بانفجار ضخم ، حدث في كتلة المادة البدائية منذ زمن سحيق يقع في حدود عشرة آلاف مليون سنة . وفي خلال هذا الزمن تكونت السدم أو المجرات والنجوم التي تحتويها ، من هذه المادة التي انفجرت وبدأت تتفرّق . وما نراه بوسائلنا اليوم من تباعد أجزائه الكبرى بعضها عن بعض انما هو من أثر ذلك الاندفاع القوي الذي أحدثه التفجّر . أما الأب « لومتر » ، البلجيكي ، فيذهب في اطار هذا الرأي ذاته الى أن الكون نشأ أصلا من احتشاد مادي كثيف ، وصفه بكلمتي « الذرة الأولى » ، وأنها انفجرت منذ ستين ألف مليون سنة ، وبعد انقضاء نحو خمسين ألف مليون سنة ، استنفد اندفاع الانفجار طاقته . وكان حجم الكون يومئذ ، في حدود مليون سنة ضوئية ، وكانت عناقيد السدم تتكاثف شيئا فشيئا من الغاز البدائي ، واذ هي تفعل دخل عليها فعل التنافر الكوني ، فبدأ الكون يتمدد . وبعد مرور عشرة آلاف مليون سنة أخرى ، بلغ الحالة التي نلحظها اليوم بالصور والمطاييف وغيرها .

ويقابل نظرية التفجر والتطور ، نظرية الكون « المتصف بالخلق المستمر » ، وأساسها فرض مؤداه أن غاز « الهيدروجين » يتكون تكونا مستمرا في رحاب الكون . ومن هذا الغاز تتكون السدم والنجوم على مراحل ، في أزمنة طويلة ، وتمضي في تكوّنها . وكذلك نجد أنه ، فيما تتفرّق المجرّات أو السدم وتتباعد ، تكون سدم أو مجرّات أخرى في سبيل الخلق أو التكون ، فتحلّ محلها في عباب المكان . واذن فالكون في هذا الرأي ، لم يتغيّر في خطوطه الكبرى ، عما هو عليه ، أو عما يبدو لنا الآن أنه كان عليه . ومهما ترتدّ الى الماضي السحيق ، ومهما يبعد زمن الارتداد ، فانه كان كذلك ، في خطوطه الكبرى أيضا . والنقاش العلمي ، لا يزال قائما ، بين نظرية التطور ، ومن عناصرها التفجر والتمدد الكوني ، ونظرية الكون المستمر . أفيقاس عمر الكون في عباب الزمن بألوف الملايين من السنين ، أم ليس لصورة ولادته وعمره معنى أو مفهوم على الاطلاق ؟

ان الاعتماد على الأدلة المستخرجة من الرصد والتحليل الطيفي لم تجد حتى الآن ، جدوى فاصلة ، في الحسم بين النوعين من النظريات ، وأيهما أدنى الى الانطباق على الكون كما نعرفه ، ونتبينه بآلاتنا وعقولنا اليوم .

فيلزم أن ندرس الكون كما كان منذ بضعة آلاف مليون من السنين ، بدراسة مجرّات تبعد عنا بضعة آلاف مليون سنة ، لأن ضوئها الواصل الينا منها ، انما انطلق منها عند ذلك الزمان ، فكأنما نراها كما كانت يوم انطلق منها . ولعلّنا نستبين بذلك ما يدلّ على حالتها وخصائصها يومئذ . فاذا ظهر أن عدد السدم في نطاق محصور من الكون ، كان حينئذ أكثر مما نتبينه اليوم في ذلك النطاق ، وأن هذه السدم تتطور شكلا وخصائص ، فالميل يقوى الى الأخذ بشكل من أشكال النظرية الأولى ، نظرية التطوّر الكوني .

الحياة في الكون

هل الأرض دون غيرها من أجرام الكون مثوى للحياة ، أو ثمة كواكب سيارة أخرى ، في مجرّتنا ، أو في المجرّات الخارجية ، تتوافر في بعضها أحوال مؤاتية لنشأة الأحياء واستمرارها وتطورها ؟

ليس في الوسع أن نحاول الرّد على هذا السؤال المترامي ترامي الكون نفسه ، الا على أساسين : أما الأول فهو أن نقرّر أن الحياة المقصودة في السؤال ، انما هي حياة كالتي نعرفها ، بطبيعتها وأشكالها على سطح الأرض . فمن العبث أن نتكهن بوجود أشكال حية يحتمل نشوؤها في أحوال غير الأحوال التي نعهدها . وأما الثاني ، فهو الافتراض بأنه اذا توافرت على أي جرم ، الأحوال اللازمة للحياة ، كما نعرفها ، في بيئة كالبيئة التي أتاحت لها الظهور على الأرض ، قلنا بأن ظهور الحياة عليه واقع حتما .

فهل تتوافر على الكواكب السيّارة الأحوال المادية المؤاتية للحياة وارتقاء أشكالها ، من حرارة وبرودة ورطوبة وجوّ مناسب ؟ جميع المؤلفات التي وضعت والبحوث والأرصاد التي أجريت ، حتى الآن ، يمكن اختصارها في ثلاث عبارات :

الفئة الأولى من الكواكب ، الواقعة بين الأرض والشمس تشمل : عطارد ، والزهرة ، ويغلب أن تكون الحياة ممتنعة عليهما ، أما لشدة الحرارة واما لطبيعة جوّهما ، وان كان الاهتمام بدراسة الزهرة لا يزال مستمرا ، خاصة بوساطة السوابر الفضائية . والفئة الثانية تشمل : المشتري ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، وبلوطو ، والحياة عليهما ممتنعة لشدة البرد ، وضآلة ما يصلها من اشعاع الشمس . أما المريخ ، الواقع مداره بين مداري الأرض والمشتري ، فقد كان موضوع نقاش علمي مستفيض منذ أواخر القرن الماضي بين القائلين بوجود أحياء عاقلين على سطحه يصنعون أقنية للري ، مثلا ، والذاهبين الى احتمال وجود أحياء من طبقة الأحياء النباتية الدنيا وحسب . وعلى كل فالأحوال على سطح المريخ كدرجات الحرارة العليا والسفلى ووجود الماء وغازي « الأكسجين » و « ثاني أكسيد الكربون » ، وهي من الشروط اللازمة للحياة على الأرض ، لا تختلف كثيرا في جوه وعلى سطحه عما هي عليه على الأرض . ويرجى أن يفضي الاستقصاء المستمر بالمراقب الكبيرة ، والتصوير ، والحل الطيفي ، والسوابر الفضائية المتلاحقة التي تدور حوله أو تحطّ على سطحه ، الى حسم هذا الموضوع .

فاذا خرجنا من نطاق المجموعة الشمسية كان لنا أن نسأل : أليس هناك بين هذه النجوم ، أو الشموس ، التي لا عداد لها ، نجوم لها كواكب سيارة ، على مثال مجموعتنا ؟ ثم أليس بين هذه الكواكب سيّار كالأرض ، تتوافر في جوه وعلى سطحه ما يتوافر عندنا من مقوّمات الحياة ؟

من النجوم ما ينبغي استبعاده من هذا الحساب ، وهي النجوم المزدوجة أو الثنائية والنجوم المتعددة ، وهي كثيرة ، بعد دراسة الكتل الغازية الدوّامة في المخبر ، والحسابات الرياضية ، يجب التسليم بعدم وجود كواكب سيارة لها ، وذلك لسببين : أولهما أن الكتلة الغازية الأصلية التي نشأت منها النجوم المزدوجة أو المتعددة ، قد حققت ميلها الأصلي الى الانقسام بانشطارها قسمين أو ثلاثة أقسام ، لم يلبث كلّ منها أن صار شمسا ، مترابطة مع الأخرى بدوران احداهما حول الأخرى ، أو بعضها حول بعض أو بدورانها حول نقطة معينة في نظام متماسك . وثانيهما صعوبة تصوّر أفلاك أو مدارات ثابتة للكواكب السيارة حول شمس مؤلفة من شمسين أو ثلاث شموس .

ولكن الشموس المنفردة كشمسنا كثيرة ومتعددة . أفليس لها كواكب سيارة ، ومن ثم أليس بين هذه الكواكب كوكب أو أكثر تتوافر فيه بيئة مؤاتية للحياة . ان الرأي هنا يتوقف على القول الذي يؤخذ به في طبيعة نشوء المجموعة الشمسية . ففريق من علماء الفلك الحديث يرى ، على التبسيط ، أن كتلة الشمس الأصلية الغازية ، كانت آخذة في التقلص بسبب اسراع دورانها حتى أصبحت تميل الى الانشطار . وانها لكذلك

اتفق دنو شمس كبيرة منها في حدود فلك بلوطو بسرعة متوسطة ، فأحدث في دنوها مدّا في كتلة شمسنا ، وما زال المدّ يرتفع ويتعاظم حتى بلغ درجة ، انتشر عندها الى مجار من المادة اللطيفة ، ما لبثت على الزمن الطويل حتى تقلصت وأصبحت كواكب سيارة . وان ذلك حدث منذ زمن بعيد . ولهذا الرأي طبعة منقحة يحلّ فيها الاصطدام بين الشمسين ، محلّ دنو احداهما من الأخرى وحسب .

فاذا كان هذا هو الذي حدث وأفضى الى تكوين النظام الشمسي ، فكثرة حدوثه بين النجوم بعيدة الاحتمال للمسافات الشاسعة التي تفصل بين الشموس ، حتى لتندر فرصة الدنو الكافي أو الاصطدام . وكان « آرثر ادنغتن » الفلكي الفيزيائي الانكليزي ، يرى أن احتمال حدوثه كنسبة واحد الى مئة مليون . وعلى هذا الرأي فوجود شموس لها كواكب سيارة ، ووجود كوكب أو أكثر منها ، تتوافر عليه أحوال مؤاتية للحياة ، ليس النمط الغالب في الكون .

على أن هذا الرأي ليس بالرأي الوحيد في نشوء النظام الشمسي ، ولعله ليس الرأي الغالب الآن . والآراء كثيرة ، أحدها قائم على أن في طبيعة الكتلة الشمسية الأصلية ، وتركيبها ، والقوى الحرارية والكهربائية المتفاعلة فيها ، ما يدفعها في أحوال معينة الى قذف تيارات ضخمة من مادتها ، مسافات بعيدة ، كما يحدث في النجوم الجديدة الفائقة ، ثم تتقلص أجزاء رويدا رويدا ، فتصير الكواكب السيارة وتوابعها . وهذا الرأي يكاد أن يكون تعديلا ، بحسب العلوم الحديثة ، لرأي لابلاس السديمي . ووفقا له يمكن حدوث نظام شمسي كنظامنا حدوثا طبيعيا ، دون حاجة الى حادث كوني بعيد الاحتمال .

هذا الرأي ، أخذت كفته ترجح في السنوات الأخيرة . فاذا صحّ ، فقيام نظم شمسية ، كنظامنا ، بين الشموس التي لا عداد لها ، أمر طبيعي ، واذن فلا بد من وجود عدد عظيم منها . ويرى العالم « هويل » ان في مجرتنا وحدها يحتمل وجود مئة مليون نظام شمسي . وفي هذه الحالة لا يستبعد أن تتوافر على كوكب سيار أو أكثر من الكواكب التي في هذه النظم الشمسية أحوال تؤاتي الحياة .

وما يصحّ على مجرتنا ، خليق أن يصحّ على المجرّات الأخرى . والواقع أن علماء الفلك الراديوي في انكلترا ، ثم في الولايات المتحدة ، ما زالوا معنيين في الفترة الأخيرة ، باشعاعات راديوية ، واردة من أقاصي الفضاء ، لم يقطعوا برأي فيما فيها ، ولكنهم لا يستبعدون من حسابهم استبعادا حتميّا مسبقا ، انها قد تكون واردة من حضارة متقدمة ، قائمة على كوكب سيار ، يدور حول أحد النجوم في احدى هذه المجرّات النائية .

الانسان بين الذرة والمجرة

من سطح كوكب سيّار لا يعدّ في حساب الكون المترامي الا نثرة من هباء ، يرود الانسان الكون بعقله باحثا ، مستطلعا ، تواقا الى استكشاف أسراره ، من أصغر دقائقه الى أضخم مجرّاته . وقد صنع المراقب الكاسرة والعاكسة ، والمجاهر البسيطة والمركبة والكهيربية ، واستعان بالصور الضوئية والمطاييف ، وبالأجهزة الرحوية ، والأمواج والنظائر المشعة والمعادلات الرياضية ومقاييس الحرارة والمغنطيسية والاشعاع وغيرها ، ومضى لا يلوي على شيء ، يستحثه الشوق الى الفهم ، فلا تثنيه العقبات ، وتتحداه الأبعاد والأغوار ، فلا تردّه المهامه التي يضرب فيها عن الريادة وما يلازمها من متاعب وفواجع . فهذا الانسان المنتصب قامة ، على سطح الأرض ، المتسامي تشوقا الى الفهم والكشف ، نراه قد نفذ من ناحية الى الذرة ومقوماتها ، فاستجلى بعض حقائقها وانتفع بها في الطب والزراعة والصناعة وغيرها ، وأطلق منها بالشطر حينا وبالدمج حينا ، طاقة لا تحد ، ونفذ من ناحية مقابلة الى طبائع الأجرام السماوية ، التي لا تكاد تحصى ، والمجرات الضخام المترامية في عباب المكان والزمان ، الى ألوف الملايين من سني الضوء ، ولم ينصرف عما بين الطرفين من أحياء وغير أحياء .

فما هو مقامه بين الطرفين ؟

اذا نظرنا الى مقام الانسان ، من حيث هو وحدة مادية وحسب ، بين الذرة والشمس ، وجدناه يفوق الذرة وزنا ، نحو ألف مليون مليون مليون مليون مرة ، وتفوقه الشمس وزنا نحو عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون مرة . فكأنه يقع في منطقة ليست بعيدة عن الوسط ، بين الذرّة والشمس . فاذا مضينا خطوة أخرى في المقابلة ، أشرنا الى أن مجرّتنا تحتوي على مئة ألف مليون نجم ، علاوة على مقدار ضخم من الغبار الكوني ، وأن في خضم الكون ألوف الملايين من المجرّات ، ان لم تكن جميعها من قدر مجرّتنا حجما ومحتوى ، فان كثرة منها على كل حال تحوى ألوف الملايين من النجوم .

وقد يظن أن البون ، الذي يكاد الانسان أن يتوسطه ، بين الذرات والشموس ، هو بون شاسع ، حتى ليبدو أن الصلة بين الذرة والسديم أو الذرة والمجرة ، تغدو بعيدة واهية . ولكن الانسان في تقدمه العلمي ، بدأ يدرك أنه حين يلتفت الى الذرة ، فانه يرى فيها من الشموس ملامح . ألم يتبين ذلك ، الصوفي « فريد الدين العطار » ، في لمحة من لمحات الاشراق ، فقال : « اذا فلقت أية ذرّة وجدت في قلبها شمسا » ، فأثبتت ذلك كشوف العلم الحديث ؟

وينقل الانسان طرفه من الذرّات الى الشموس ، فتعينه الذرّة حينا على استقصاء طبائع النجوم وفهمها ، ثم يستعين بما أفاد ، على ادراك بعض ما في الذرّة من غوامض ؟ ألم يستكشف عنصر « الهليوم » في الشمس قبل كشفه على الأرض ؟ ألم ينته العلماء من دراسة التفاعلات الذرّية والنووية الى فهم التفاعل في قلب الشمس ، ثم الى ادراك ما يماثله من التفاعل في القنبلة النووية الحرارية ، لحظة انفجارها ؟ وسرعان ما صنع الانسان القنبلة وفجّرها . ثم أليس لنا أن نتطلع من خلال هذا الفهم المتزايد للصلة بين الذرات والشموس ، الى ترويض هذه المعرفة وجعلها مصدرا لا نفاد له ، للطاقة المحركة التي يطّرد الاحتياج اليها في التقدم العمراني . فالعالم الفيزيائي ، المكب على دراسة الذرّات والأمواج ، لا يلبث أن يتسع مدار تأملاته ودراساته رويدا رويدا ، حتى يشمل النجوم ، بل الكون كله . والفلكي المنصرف الى مرقبه ومطيافه وسائر أدواته ، سرعان ما يلفي نفسه ، وهو يفيد من دراسة الذرّات في فهم النجوم والمجرّات من ناحية ، وامداد دارسي الذرّات من ناحية أخرى بما يعينهم على مواصلة البحث وتوسيع نطاق الفهم .

ومهما يكن ميدان التخصص الذي يكبّ عليه العلماء الباحثون سواء أالى الذرات انصرفوا أم الى النجوم والمجرات ، وما بينهما ، من جزيئات ودقائق ومضت فيها الحياة ومضتها الأولى ، فليس في وسعهم أن ينعزلوا بعضهم عن بعض ، فجميعهم يطوّفون على مطايا فكر يجنحه الشوق والخيال ، وتضبطه قواعد المنهج العلمي ، وتتآزر الوسائل والطرق في العلوم المتباينة والمتجاورة على توسيعه وتعميقه ، ولن يحطّوا عصا الريادة مهما يدلهم المدى أمامهم ، وكأنهم يرددون قول الفيلسوف بكر : « قيمة الانسان ، هي أنه ذلك الجزء من الكون الذي يسأل السؤال ، ثم يحاول أن يجد الجواب » ■

«إيهِ يا بَدْرُ!»

"في ذكرى ملحمة بدر التي جسّدت أروع معنى للتضحية والإباء"

للشيخ محمد رضا آل صادق

حدثي بدر فالقلوب ظماء .. لحديث ينساب فيه الرجاء !
حدثي بدر أن يومك مجد شامخ .. لم تزل له أصداء
حدثينا .. فأنت رمز البطو لات .. ودرس يرفّ فيه الفداء
أي ركب مشى اليك فأضحت تترامى – من هوله – الأشلاء ؟
اذ تهادى الايمان يهتزم الكف ر .. وللنصر روعة وبهاء ..
لم ترع كثرة الضلال خطاه وبكفيه يشرئب الفناء !
بوركت .. بدر .. قلة تملأ الرح ب دويّا تهابه الهيجاء ..
انها قد سمت بأعظم شأو لا يدانى وهو القصي العلاء

* * *

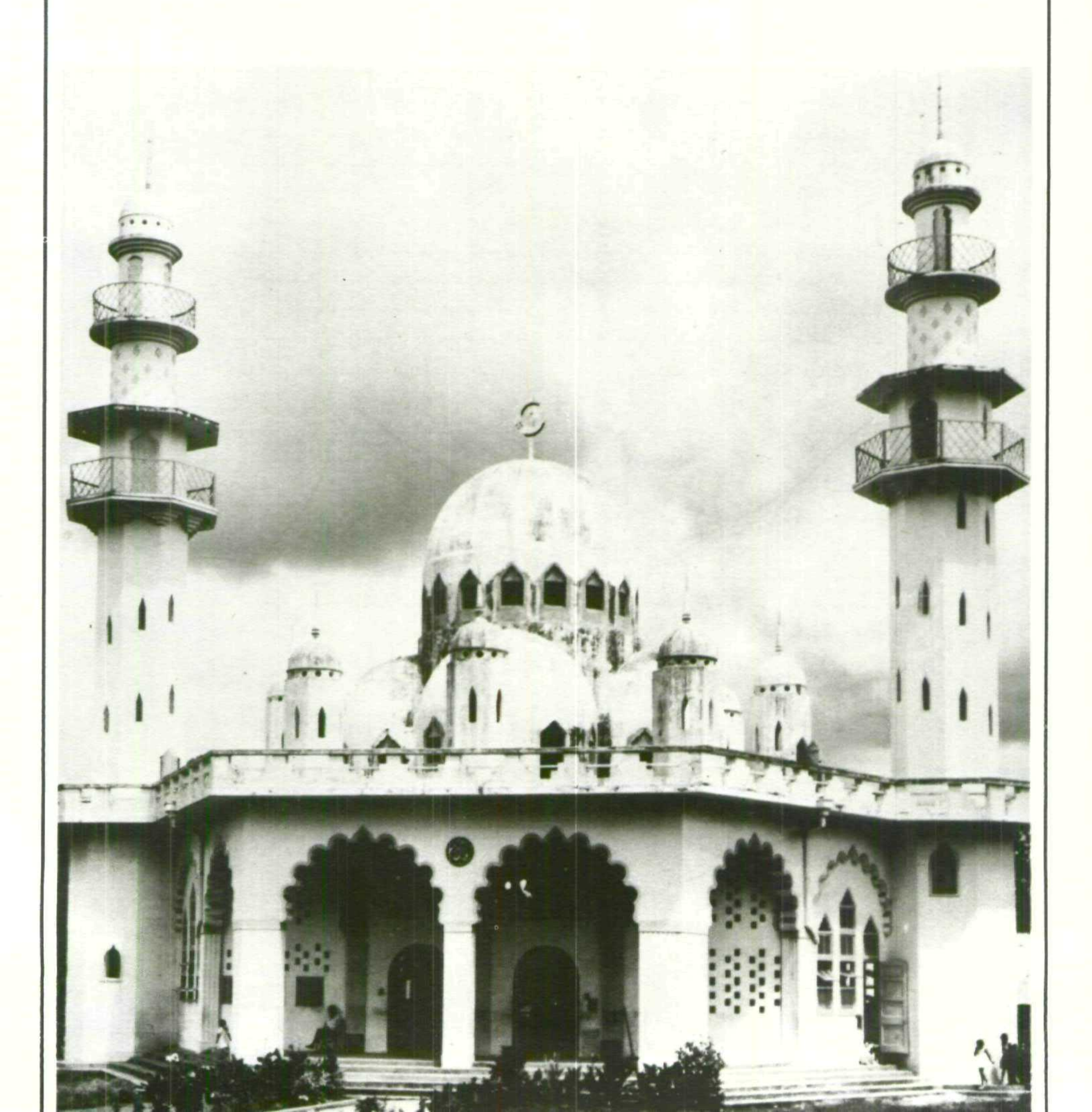
ايه يا بدر يا سراجا حوالي ه تراءت لنا الأماني الوضاء
فانطوى فيه أي عهد لئيم ملؤه البؤس والأسى والشقاء
يا لها من صحائف أشبعتها ظلمها الجاهلية الجهلاء ..
هكذا كان يعبث الألم الم ر وتقتات أمسنا البرحاء
ثم كانت ايماءة شاءها الله لهذا الوجود مما يشاء
فاصطفى منه للرسالة « طه » من رآه نعم الأنيس « حراء »
وحباه بالخلق والصدق والنبل عظيما تعنو له العظماء
فمضى في ربيعه الخصب معط ارا لتحيا في ظله الصحراء
ثم خفّت خلف النبي نفوس مؤمنات يفيض منها الولاء
وتخطى الهدى أفاويق دنيا حلوة ماج في مداها الصفاء
يا بني المصطفى وها هي تمتد وتعلو الرسالة السمحاء
علمتنا أن كيف تمضي انتصارا في لظى الحرب قلة عزلاء
أقبلت في جريد نخل ولكن حملته العقيدة الشماء
فأذلت به أبا جهل والعتب ة .. حتى توارت الكبرياء ..
وأذاقت طغاتها الحتف تقتي لا فروت ظمأى الرمال الدماء
والنبي الأمين زف له الفتح مبينا يضوع منه الثناء ..

* * *

يا رسول الهدى سلام .. وفي الصدر ضرام تكوى به الاحشاء
قد طغت في الدنى أعاصير شحناء وولى الى الرحيل الاخاء
وتمادت أظافر الدهر تمتص دمانا وارتد عنا السناء ..
أين عنا بدر لتسكب فيها العزم والتضحيات وهي السخاء
أين منا الدم الذي طالما شب بسوح الجهاد فيه الاباء
فلنوحد صفوفنا لنصد الخصم في وثبة غذاها المضاء
ولنحيا في يقظة العمر يغتر بأوطاننا الرحاب الهناء

الأثر العربي في أمريكا الجنوبية

بقلم الاستاذ عبدالله حشيمه



أقام العرب في الأندلس نحوا من ثمانية قرون ، وأنشأوا خلافة وممالك وامارات ، فكان طبيعيا أن يتكاثر عددهم مع الأيام ، فلا يقل في النهاية عن بضعة ملايين .

واضطروا بعدها الى الانسحاب والخروج من الأرض التي تحدث آثارهم فيها عنهم ، حضارة وثقافة وفنا ، فضلا على نهضة أوروبة من بعدهم . فمن انسحب وخرج منهم ؟

ان المنسحبين والخارجين كانوا من القوات المحاربة ، أو بالأحرى من بقايا هذه القوات ، ولم يكن من سبيل لانسحابهم الا سلوك طريق البحر الى الأراضي المغربية . وهذا يعني أن العدد القليل من مجموع الأهلين العرب غادر الأرض الأندلسية ، ومن تبقى من غير المحاربين ، وهؤلاء كانوا الأكثرية الساحقة ، لم يغادروا الأرض تلك ، ولو أرادوا مغادرتها لما استطاعوا ، لعدم توفر الوسائل اللازمة لعبورهم البحر .

منطق هذا وواقع . وواقع أن المتخلفين هناك ، وعددهم بضعة ملايين ، لم يجدوا سبيلا للعيش بأمان وسلام في المجتمع الذي يختلف عن مجتمعهم ، الا بالانسجام الطوعي أو القهري مع هذا المجتمع . فكان أن انخرطوا فيه متسمين بطابع ذويه .

ومع ذلك كله فقد ظلوا ، في نظر سكان تلك البلاد الأصليين ، الاعداء الذين لا بد من مرور أجيال ، قبل أن يصبحوا أهلا للتمتع بحقوق المواطنين الصالحين .

واكتشفت في أعقاب ذلك أميركة . واتجهت نحوها الأنظار .

ورأى أهل الطموح المجال الرحب فيها لتحقيق احلامهم ، فهناك الثروات التي حدث المحدثون عنها ، وهناك الخيرات التي تحتاج الى من يكتشفها ، فاذا توصل أحدهم اليها لم تبق بينه وبين تحقيق أمانيه مسافات وحدود .

وغير هذا رأى من كانوا عربا فيها .

رأوا فيها الأرض التي من استوطنها غدت أرضه ، لا فوارق بينه وبين الآخرين من مستوطنيها ، ولا آثار ماض يذكر بما كان بين فئات هؤلاء المستوطنين ، مما من شأنه اثارة النعرات وتهييج الشجون .

ورحل عدد كبير منهم في عداد الراحلين اليها . واشتركوا في تعمير هذه البلاد ، وفي انماء طاقاتها الحيوية المختلفة ، وكانت لهم في بعضها اليد الطولى .

* * *

في عام ١٤٩٢م ، اكتشف « كريستوفر كولمبس » ، البحار الجنوى الأصل ، أميركة . وتوالى بعده المكتشفون .

وكانت البرازيل من نصيب البرتغال ، اكتشفها بحار يدعى « بدرو ألفارس كابرال » ، عام ١٥٠٠م ، وكان اكتشافها « صدفة » .

والصدفة كانت أن البحار المذكور أبحر بعمارة الى الهند ، ولدى وصوله الى الرأس الأخضر من سواحل أفريقية الغربية ، أراد أن يتجنب هذا المكان ، خوف الأوبئة التي كان قد شاع نبأ انتشارها فيه ، فاتجه بعمارته الى عرض المحيط ، غير حاسب حساب التيارات الأوقيانوسية التي لم تكن بعد معروفة ، فحملته هذه التيارات وسفنه الى البرازيل .

هذا ما قيل .. الا أن ثمة ، من علماء التاريخ المدققين ، من يقول غير هذا القول ، فالصدفة المزعومة لم تكن صدفة ، وانما كانت اختلاقا مقصودا لصرف الأفكار عن الواقع .

الواقع كان هذا :

لقد عرف العرب الأندلسيون زمن دولتهم البرازيل ، وذكروها في أخبارهم باسم « الجزيرة الخضراء » . ودل ملاحوهم المتخلفون في البرتغال « بدرو ألفارس كابرال » عليها ، اذ لم يكن هذا — في زعم القائلين — ملاحا خبيرا بالطرق البحرية والسير فيها . واذن .. فكيف يمكنه أن يقود حملة كالتي قادها ، ويصل بها سالما الى ما وراء المحيط ؟

وللعرب في البرازيل حتى الآن آثار . وقد أتيح لي الاطلاع بنفسي — خلال رحلة قمت بها قبل نحو عشرين سنة الى أميركة — على بعض آثارهم تلك . وفيما يلي أهمها :

المدينة الأولى التي حطت فيها طائرتنا ، بعد عبورها المحيط الأطلسي من الجانب الأفريقي كانت مدينة « رصيف » الشمالية . وكلمة « رصيف » عربية .

أضف الى ذلك أن علماء اللغة البرتغالية ، يؤكدون أن في هذه اللغة ، سبعة آلاف كلمة من لغة الضاد .

وغير هذا الأثر في « ريو دي جانيرو » .

هناك شارع « الفندكا » ، وهو الشارع الأول في محلة المرفأ ، وقد اتخذته الجاليات العربية ، منذ بدء اغترابهـا الى البرازيل ، مقرا لها .

اسم هذا الشارع « الفندكا » مأخوذ من كلمة « الفندق » العربية ، والفندق عند عرب الأندلس كان بناء يقام على الحدود الدولية ، لضبط الصادر والوارد من البضائع والمواد ، واستيفاء الرسوم القانونية عنه . وهذا هو البناء الجمركي في زمننا .

ووجود الشارع المذكور في محلة المرفأ ، في جوار المباني الجمركية القائمة هناك ، حمل الأوائل من ذوي الشأن على اطلاق اسمه العربي عليه .

وفي ريو دي جانيرو « القصر المغربي » . انه أحد أبدع وأفخم القصور التي يدعى السياح الى رؤيتها ، بناؤه عربي مغربي مئة بالمئة ، وعربيا مغربيا كان صاحبه الذي تحكى عنه وعن الحياة التي كان يحياها ، حكايات كحكايات ألف ليلة وليلة .

وللأسماء العربية الشخصية كذلك أثرها ، فأنت تسمع مثلا أسماء اسماعيل ، وعمر ، وحسن ، فتظن أن هذه الأسماء لأفراد من أبناء جالياتنا المنتشرة هناك ، واذا هي في الواقع أسماء أشخاص من أبناء البلاد أنفسهم . توارثوها أجيالا عن أجيال .

وعن واحد من هذه الأسماء ، حدثني أحد أساتذة الجامعة في « سان باولو » ، وهو من أبناء جاليتنا هناك . قال :

كنت مرة في دار الاذاعة ، فسمعت صوتا أنثويا ، كأنه من أصوات الحور ينشد : « يا ام العبايا » ، فرحت أتعرف الى صاحبته ، فاذا هناك فتاة سمراء ذات سمات عربية واضحة ، لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، فما شككت لدى رؤيتها في أنها من بنات الجالية العربية . وشد ما كانت دهشتي اذ علمت أنها من أب برتغالي وأم اسبانية .. وسألتها : « كيف تعلمت الغناء العربي ؟ » فأجابت : « تعلمته بالسماع ، ولي ميل شديد ما أدري سره ولا سببه » .

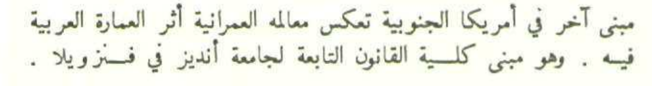
وأغرب من ذلك اسمها : « الطائر مكة » ، ويكتب بالبرتغالية : « Altaer Meca » . فما معنى هذا الاسم ، والعروبة كلها فيه ، وكيف وصل اليها ؟

سألتها ، فأجابت : لا أدري . وسألت والديها ، فعلمت انه اسم مألوف في عائلة أمها . قلت : لا شك في أن الأم عربية الأصل ، واسم البنت وميلها الى الغناء العربي ، محض وراثي .

هذا ما قاله لي الأستاذ المواطن في « سان باولو » بالبرازيل .

بنيان في ترينداد يؤكد الأثر العربي في أمريكا الجنوبية ، وتبدو أبراجه وكأنها بعض مآذن المسجد الأثري الذي بناه محمد علي جناح .




مبنى آخر في أمريكا الجنوبية تعكس معالمه العمرانية أثر العمارة العربية فيه . وهو مبنى كلية القانون التابعة لجامعة أنديز في فنزويلا .



منظر عام لكنيسة « سان دومينغو » بمدينة سانتياغو في تشيلي ، ويبدو الأثر العربي ظاهرا في مبناها الذي يوحي للناظر لأول وهلة بأنه مسجد .

والأثر العربي في البرازيل ، كما في أي بلد من بلدان أميركة اللاتينية ، يبدو أكثر ما يبدو في هندسة المباني ، من قصور ، ودور ، ومعابد .

وفي الأرجنتين يبلغ الأثر العربي القمة بوجوده وعطائه السخي على كل صعيد .

ويقول مؤرخو ذاك البلد : كثيرون من ابناء الجاليات الأولى التي تحدر الشعب الارجنتيني منها كانوا من أصل عربي .

وعلى القول أدلة :

هناك مثلا « الغاوتشو » ، ويدعون فرسان البر .. هؤلاء عرب أقحاح ، في رأي المؤرخين المحققين . وممن كتبوا عنهم علامتنا المغترب الكبير ، المرحوم الأمير أمين أرسلان ، الذي . بعد أن زارهم وجالسهم وآكلهم قال « ان القوم هؤلاء عرب مئة بالمئة ، بعاداتهم وتقاليدهم وفروسيتهم ، بلباسهم وطعامهم وطراز معيشتهم » .

فالطابع العربي المغربي طابعهم . وهم كالعرب ، يهاودون في كل شيء ، الا في الحفاظ حتى الموت على المرأة والجواد والسلاح !

وهناك أسر قديمة لا تنكر أصلها العربي ، وما يزال بعضها يحمل الاسم الذي يدل عليه كأسرة « البرّاسين » المعتبرة من أغنى وأشرف أسر البلاد . وهي أسرة تعود بأصلها الى جماعة « البيّازين » المعروفة في تاريخ الأندلس ، وقد كان رجالها من أفرس فرسان زمانهم ، وكم من معركة خاضوا ذودا عن مدينة غرناطة التي كانت مدينتهم .

وممن لعبوا دورا خطيرا هناك الرئيس « سارمينتو » الملقب بأبي الثقافة الأرجنتينية .. كان هذا من كبار الأدباء والسياسيين ، جلس على كرسي رئاسة الجمهورية زمنا قضاه في تنظيم الحركة الثقافية والتربوية ، وله في كل مدينة من مدن البلاد تمثال يرى فيه حاملا كتابا ، وحوله عدد من الطلاب يبدون وكأنهم سعداء بوجوده بينهم .

وللأديب « سارمينتو » نحو عشرين مؤلفا . ومن مؤلفاته واحد خص به نفسه ، راويا سيرة حياته .. وفيه يعتز بكونه يمت الى العرب بصلة وثقى ، ويفاخر بكون هذه الصلة تعيد الدم الجاري في عروقه الى دم عربي أندلسي .

والمباني العربية الهندسة في الأرجنتين كثيرة ، ويكاد الناظر اليها يشعر بأنه أمام تراث بناة الحمراء والزهراء ، وسادة غرناطة ، وأشبيلية ، وقرطبة . وأروع ما يحدثك عن أولئك البناة والسادة في المباني العربية الطراز والهندسة تلك ، الآيات المرسومة بالخط العربي الجميل المذهب على جدرها الداخلية ، ومنها : « الله أكبر » ، و « لا اله الا الله » ، و « لا غالب الا الله » . وحتى في بعض المعابد تقرأ هذه الآيات .

وربما يدهشك ذلك .. ولكن دهشتك تزول ، اذ تعلم أنها للفن وحده رسمت ، والفنان العربي استوحى في رسمها روح فنه .



ليس هذا مسجدا ، كما يخيل للناظر لأول مرة ، وانما هو مبنى لأحد النوادي الرياضية الشهيرة في العالم وقد غلب عليه طابع فن العمارة الاسلامية .

نشرت هذه الصور باذن من :
Authenticated News International

وللأرجنتين « قرطبتها » . وقرطبة الأرجنتين لعبت دورا بارزا في تاريخ البلاد السياسي ، وما تزال تلعب الدور الأول على مسرح العلم والثقافة . فهي عند البعض « رومة أمريكا الجنوبية » ، وعند البعض الآخر « اكسفورد أمريكا اللاتينية » ، وهناك من يطلق عليها لقب « فبركة الأطباء والمحامين والكهنة » ، لما فيها من معاهد يتخرج هؤلاء فيها .

تلك المدينة تذكر بقرطبة الأندلس . وقد لا يكون بناتها القدامى عربا ، الا أن طابعها العلمي والثقافي ، وقد كان لقرطبة الأندلس الطابع نفسه ، يدعو الى التساؤل : أتكون هي الصدفة التي جعلت من قرطبة الأرجنتين مرآة لقرطبة الأندلس ، أم ان ثمة من أراد لها قصدا هذا الطابع كيلا يحرم العالم الجديد من قرطبة كقرطبة العالم القديم توزع العلم والمعرفة ؟

* * *

وكانت « كالي » أول مدينة نزلتها في « كولومبيا » . وهذه المدينة من أقدم المدن الأمريكية ، يعود تاريخها الى العام ١٥٣٦م ، ومؤسسها القائد « سبتيان دي بلكاسر » و « بلكاسر » بالعربية : « ابن القصر » .

وفي كولومبية ولاية تدعى « المداين » ، وعاصمتها « انطيوكية » ، أي انطاكية والاسمان كافيان للدلالة على أصلهما ، فكيف اذا أضيف اليهما ما لأهليهما من أوصاف تنطبق على الانسان العربي أكثر منها على سواه ؟

والرأي السائد هو أن سكان الولاية المذكورة منحدرون من صميم الجاليات الاسبانية الأولى التي نزلتها ، وان هذه الجاليات كانت عربية الأصل ، وترجع بتاريخها البعيد الى الجاليات العربية السورية التي انتقلت الى الأندلس ، وحملت اسم المدينة السورية الكبرى « انطاكية » آنذاك معها .

وفي كولومبية « قرطاجة » . وقرطاجة في الأصل المدينة والدولة المشهورة التي أسستها « أليسار » ، ابنة ملك صور الفينيقية ، في شمالي أفريقية .

والى اسبانيا نقلها « هميلقار برقة » قائد الجيوش القرطاجية ، ووالد « هنيبعل » البطل الذي دوخ الأمبراطورية الرومانية طوال خمس عشرة سنة .

فما حكاية قرطاجة كولومبية ؟ لم تكن قرطاجة « أليسار » عربية .. لكن العرب انتزعوها فيما انتزعوا من أيدي الروم ، وأصبحت البلاد القائمة فيها قطعة من أرضهم ، فكانت قرطاجة اسبانية ، والحالة هذه أقرب اليها منها الى الاسبانيين الذين كانت دخيلة عليهم .

ومن نقل انطاكية نقل قرطاجة . رأي هذا لا أكثر .

* * *

وقال لي محدثي :

— أنتم العرب هدمتم امبراطوريتكم بيدكم .. كان يجب أن تكونوا اليوم ملء أمريكا اللاتينية ، ولكنكم أضعتم الفرصة التي أتاحت لكم ذلك فيما مضى .

قلت ، وقد فتحت عيني دهشة :

— كيف ؟ لم أفهم !

قال مفسرا :

— بلغتكم على الأقل .. لقد ملكتم اسبانية والبرتغال نحوا من ثمانية قرون ، فكان هذا الزمن كافيا لفرض لغتكم على أبناء ذينك البلدين ، ولو فعلتم لكانت لغة بلدان هذه القارة الاسبانية والبرتغالية الأصل هي العربية .

وكان محدثي محاميا مكسيكيا ممن لا يجهلون العرب وتاريخهم ، تعرفت اليه في مجتمع من مجتمعات جاليتنا اللبنانية في « مكسيكو » . ولفرط ما حدثني عن العرب وأثرهم في الأندلس ، وفي أمريكا نفسها ، لم أشك في كونه منحدرا من احدى الأسر العربية التي جاء أبناؤها مع المستوطنين القدامى الى هذه القارة . وحين أفضيت اليه بما يداخلني من ذلك ، قال جادا :

— غير مستبعد هذا !

وكان رأيه في ما سبق وقلت ، من تخلف أكثرية العرب الأندلسيين في الأندلس ، ونزوح عدد كبير منهم الى العالم الجديد ، حيث ما يزال لهم في كل مكان منه أثر .. كان رأيه في ذلك رأيي . ■

صراع الناس مع معاني الكلمات

بقلم الدكتور ابراهيم أنيس

يعيش الناس في مجتمعهم حياة تقوم على قدر كبير من التعاون وتبادل المصالح ، فيتصل بعضهم ببعض ، وينتفع بعضهم ببعض ، ويسعى الفرد فيهم وراء رزقه ، وما يكفل لـه الأمن والرخاء والاستقرار ، متجولا يوما في الشمال وآخر في الجنوب ، وساعة مع الباعة في الأسواق ، وأخرى مع الموظفين في الدواوين ، غير تارك ناحية من نواحي المجتمع الا طرقها ، وهو في كل ذلك يتخذ في اتصالاته تلك الوسيلة التي تنتظم أبناء مجتمعه ، والتي تيسر لهم أسباب التعاون الاجتماعي ، وهي ما يسمى « باللغة » .

والناس مع هذا ربما نشأوا في ظروف مختلفة ، وتأثروا بتجارب متباينة فيما سبق من حياتهم ، مما قد يترك أثرا قويا في فهمهم لمعاني الكلمات ، وبصبغها بصبغة خاصة من ظلال الدلالة لدى كل منهم . ولكنهم برغم هذا يظلون يتعاملون بتلك الكلمات ، ويتنازل كل منهم دون عمد أو شعور ، عن تلك الفروق التي تظلل الدلالات في أذهانهم بظلال متباينة ، قانعين في حياتهم الاجتماعية بقدر مشترك من الدلالة يصل بهم الى نوع من الفهم التقريبي هو الذي يكتفون به عادة في حياتهم العامة .

وهذا القرار المشترك من معنى الكلمة هو الذي يسجله اللغوي في معجمه ، ونطلق عليه هنا الدلالة المركزية . وأقصى ما يطمع فيه اللغوي هو أن يجعل تلك الدلالة المركزية واضحة في أذهان الناس ، فيحاول شرحها وتحديدها في معجمه مستعينا في ذلك بفهم جمهور الناس من الطبقة المثقفة ، ومتخذا منهم نماذجه الدلالية في المعجم .

والدلالة المركزية مع هذا ، منها ما يتطور بتطور حياتنا ، ومنها ما يظل على حاله في كل مراحل الحياة . فكلمة « الشجرة » مثلا تتضح دلالتها المركزية في ذهن الفتى أو الغلام ، وتظل على هذا القدر من الوضوح طوال حياته دون زيادة أو نقص يذكر ، في حين أن كلمة أخرى كالحزن أو الغضب قد تتطور دلالتها المركزية معنا ، فتأخذ وضعا في طفولتنا غير الذي هي عليه في شبابنا ، ثم تستقر على حال معينة في شيخوختنا .

أما الدلالة التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وما ورثوه عن أسلافهم ، فتلك التي نطلق عليها اسم الدلالة الهامشية ، وهي التي لا تكاد تعنى بها المعاجم ولا تحاول الخوض فيها . فالمتكلم ينطق باللفظة أمام السامع محاولا بهذا أن يوصل الى ذهن السامع دلالتها ، فتبعث تلك اللفظة في ذهن من سمعها دلالة معينة اكتسبها من تجاربه السابقة ، وهو بعد سماعها يفترض أن ما دار بخلد ذلك المتكلم يطابق تمام المطابقة ما يدور بخلده هو . ولكنه لم يتغلغل في عقل المتكلم ليتبين مراده الدقيق ، بل لا سبيل الى هذا ، ولم يقف على كل الحدود الدلالية لدى المتكلم وانما بنى فهمه للفظ على تجاربه هو وفهمه الخاص

فهناك مثلا شاب يسمع لفظ « المسدس » فيدرك من توه دلالته المركزية ، ثم لا يكاد هذا اللفظ يثير في ذهنه مع تلك الدلالة المركزية شيئا من ظلال المعاني ، أو ربما يثير ذكريات محببة لديه حين يذكر طفولته ، وملاعب صباه يوم كانت له لعبة عزيزة في صورة المسدس يطلقها في الهواء فتبعث شررا ، أو تقذف قطرات من الماء أمام لداته من الأطفال .

وهناك شاب آخر مرّ به حادث أليم رأى فيه مجرما أثيما يصوب « المسدس » نحو شخص عزيز عليه ، ثم يطلقه فيحدث دويا مزعجا بعده يخرّ ذلك العزيز صريعا تتدفق الدماء من صدره . فلفظ « المسدس » في ذهن هذا الشاب تظلله دلالة هامشية بغيضة منفرة .

ولفظ « البنسلين » مع قروي صحيح البدن ان دلّ على شيء فانما يقتصر دلالته على انه نوع من الدواء سمع عنه أو رآه ، ولكن نفس اللفظ يقع من أذن المريض وقعا آخر بعد أن جرب آلام الحقن عدة مرات ، وقاسى عذاب المرض زمنا ما جعل لفظ « البنسلين » يحاط في ذهنه بظلال هامشية من الدلالة لا أثر لها في ذهن ذلك القروي .

وهكذا نرى أنه بينما تجمع الدلالة المركزية بين الناس تفرق الهامشية بينهم ، وبينما تساعد الأولى على استقرار المجتمع وتعاونه وقضاء مصالحه قد تكون الأخرى عاملا على خلق الشقاق والنزاع بين الأفراد .

ولعل أوضح مجال للدلالة الهامشية هو المجال السياسي . هنا قد تفرق الدلالة الهامشية بين الانسان وأخيه الانسان ، وتنفر الشعوب بعضها من بعض ، وتقيم بينهم أسوارا وحواجز ، بل قد تدفعهم الى الحروب وويلاتها .

فألفاظ السياسة تحاط عادة بهالة من الظلال الهامشية التي تؤثر في عقول الناس ونفوسهم ، وتوجههم توجيها معينا ، نحو الخير حينا ، ونحو الشر أحيانا . واذا صح ما يقوله المفكر الفرنسي « تاليراند » من أن الانسان انما يتكلم ليخفي ما يدور في ذهنه ، فليس ينطبق هذا القول على مجال من مجالات الكلام مثل انطباقه على لغة السياسة ومؤتمرات السياسيين .

أما المجال الآخر الذي تسود فيه الدلالة الهامشية ، أو تصول وتجول فيه ، فهو مجال المنازعات القضائية . ويدرك رجال القانون أكثر من غيرهم أثر تلك الدلالات الهامشية في النزاع بين الناس . ذلك لأن الألفاظ القانونية التي قد تكتسب صفة المصطلح المحدد الدلالة قليلة ، والكثرة الغالبة من ألفاظ القانونيين تتصل اتصالا وثيقا بحياة الجمهور ومعاشهم ، وتصف مشاكلهم الاجتماعية ، وتدبر شئونهم العامة ، وترعى مصالحهم . ومع أن القانوني يحاول جاهدا أن

يحدد معاني تلك الألفاظ ، يلحظ أن الناس لا يزالون يختصمون .

وليس من الضروري أن نفترض المغالطة في كل نزاع قضائي ، فقد يكون النزاع حول مدلول اللفظ عن عقيدة وايمان بين كل من المتخاصمين. فالقضاة والمحامون يقضون نصف حياتهم في صراع مع معاني الكلمات وحدود تلك المعاني فيوفقون حينا ، ويفشلون حينا آخر .

وليست تلك الدلالة الهامشية كلها شرا ، فقد تكون سببا من أسباب المتعة للناس حين يستغلها الأدباء والشعراء الذين لا يقنعون بالدلالة المركزية ، بل يستوحون دلالات هامشية من الألفاظ ، وينطلقون على ما يقتصر على الدلالات المركزية من أساليب ، اسم الأسلوب العلمي الذي لا يستهدف الا ايصال الحقائق دون زيادة أو مغالاة . فكلمة الربيع حين يقتصر في شأنها على الدلالة المركزية تصبح كما يصفها علماء الطبيعة بقولهم مثلا (الربيع أحد فصول السنة يحل لأسباب كونية خاصة ، وفي شهور معينة ، وتصحبه عادة خضرة في الأشجار واعتدال في الطقس) . الخ .

ولكن الربيـــع مع الأديب المطبوع حين ينفعل ويستوحي الألفاظ ، ويشحنها بالظلال الهامشية يصبح شيئا آخر ، أو يصبح أدبا رائعا .

فالدلالة الهامشية هي المسئولة عن كثير من روائع الأدب ، وهي التي بعثت ما يسمى بالنقد الأدبي الذي ألفت فيه الكتب ، ووضعت له الأسس والمقاييس . فأصحاب النقد الأدبي يعرضون الى ما يسمونه بالذوق العام والذوق الخاص . ولا شك أن ذلك الذوق الخاص لا يعدو أن يكون أثرا للدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الناس وتجاربهم مع الألفاظ ، وأمزجتهم وعواطفهم وظروفهم المتباينة .

ويتضح أثر الدلالة الهامشية في النقد الأدبي من تلك النماذج الكثيرة التي يسوقها النقاد في كتبهم ، لا سيما حين ينصب نقدهم على دلالة الكلمة . وفي كتب النقاد القدماء أمثال «الموشح» للمرزباني ، و«الموازنة بين الطائيين» للآمدي ، و«العمدة» لابن رشيق ، و « الصناعتين » لأبي هلال العسكري ، و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، و « المثل السائر » لابن الأثير ، وغير هؤلاء ، نماذج كثيرة نكتفي بعرض طرف منها لتوضيح أثر الدلالة الهامشية في الحكم على حدود المعنى لاحدى الكلمات .

فقد عاب النقاد على أبي تمام قوله :

رقيق حواشي الحلـــم لو أن حلمه
بكفيـك مـــا ماريت في أنـــه ثوب

وعلق الناقد على هذا البيت بقوله « ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة ، وانما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » .

وعجب أحد النقاد لأن أبـــا العتاهية يعدّ بين الشعراء مع قوله :

رويـــدك يـــا انسان لا أنـــت تقـــفز

ورأى هذا الناقد أن كلمة « تقفز » لم تخرج من فم شاعر محسن قط . وليت شعري أي خصومة بين هذا الناقد وهذه الكلمة ، الا أن تكون قد ارتبطت في ذهنه بدلالة هامشية خاصة نتيجة تجاربه السابقة ، مما يغضّه فيها ، فصور دلالتها في ذهنه على تلك الصورة التي في رأيه لا تليق بالشعر والشعراء .

ولما قال أبو العتاهية في نسيبه أو تشبيبه باحدى الحسان قوله :

انـــي أعـــوذ من التي شغفت
منّـــي الفـــؤاد بآيـــة الكرسي

قـــال النقاد ان آية الكرسي يهرب منهـــا الشياطين ، ويحترس بها من الغيلان .

وهم حين عابوا هذا لم يخطر في أذهانهم أن لآية الكرسي دلالة هامشية خاصة في ذهن أبي العتاهية تختلف عما في أذهانهم ، أي أنهم لم يسمحوا للشاعر أن يستمد من تجاربه الخاصة ومزاجه الخاص دلالة هامشية للكلمة تباين ما لديهم

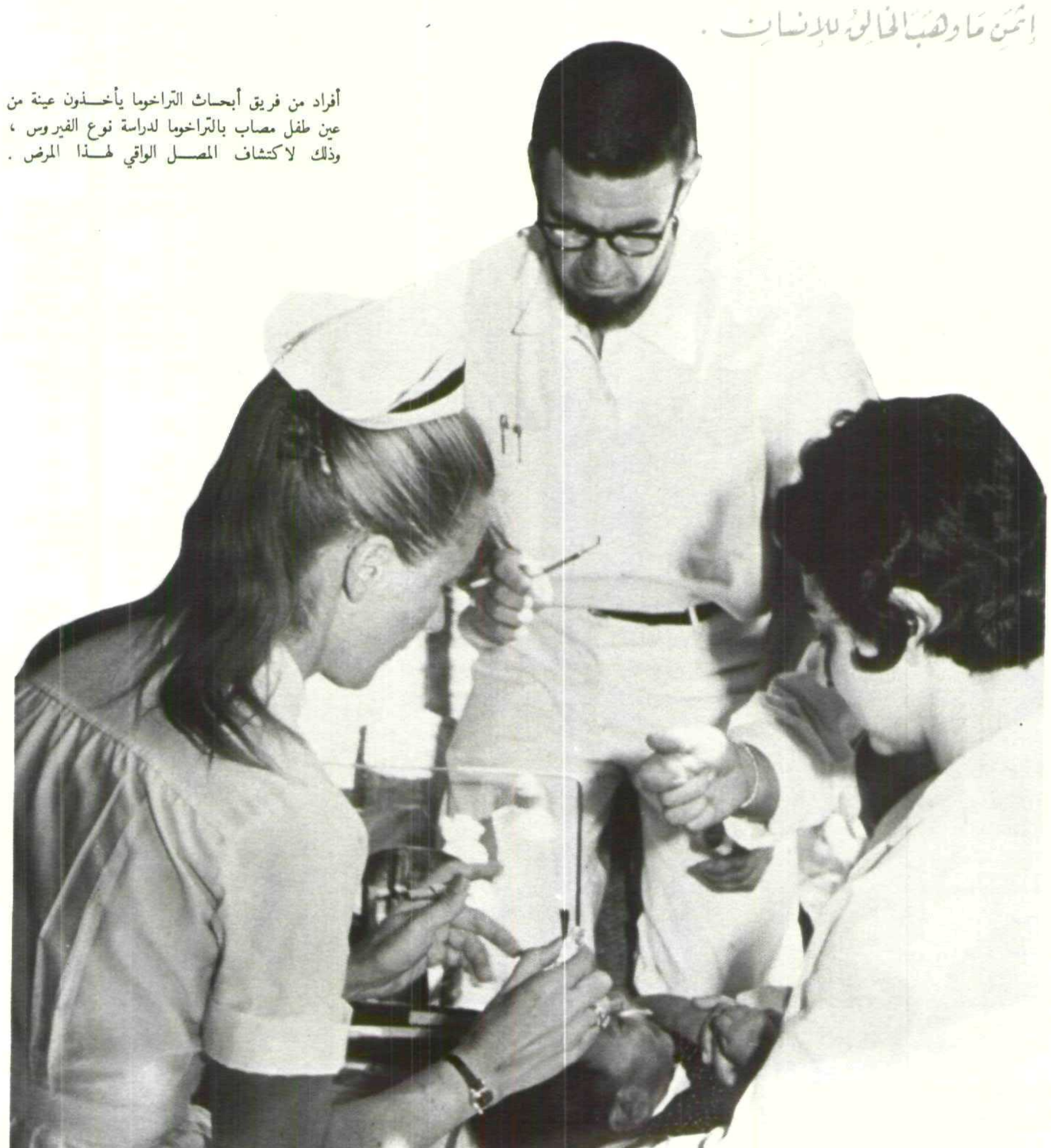
ولمـّا حملت « قطر الندى » بنت خمارويه الى الخليفة المعتضد ، وكتب معها أبوها يذكر الخليفة بخدمة سلفها ، أمر الخليفة وزيره بالجواب عن الكتاب ، وكلف الوزير أحد كتابه بالرد فغاب الكاتب أياما وأتى بنسخة يقول فيها « وأما عن الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك الى شمالك ، عناية بها وحياطة عليها » . ثم أقبل الكاتب على الوزير معجبا بحسن ما وقع لـه من هذا وقال « تسميتي لها بالوديعة نصف البلاغة » ، فقال الوزير : « ما أقبح هذا .. تفاءلت لامرأة زفت الى صاحبها بالوديعة ، والوديعة مستردة » .

فلكلمة « الوديعة » في ذهن كل من الرجلين دلالة هامشية خاصة تتصل بالتجارب السابقة لكل منهما ، ولذا حسنت في عين هذا ، وقبحت في عين ذاك .

ومع أن رقي الحياة العقلية في كثير من الأمم قد حدد من الدلالات ، وخلصنا من كثير من الظلال الهامشية التي كادت تطمس معالمها ، يبدو أن لا سبيل الى الخلاص النهائي من متاعب الدلالات وصراعنا معها ، الا باصطناع وسيلة أخرى غير الكلام ، للتفاهم والاتصال الذهني بين أفراد المجتمع . وذلك كأن يوهب المرء مثلا نوعا من التفاهم الروحي الذي يكفي فيه مجرد النظر بين اثنين ليدرك كل منهما ما يدور بخلد الآخر . فلو أن كلا منا وهب من الاستعداد الفطري أو الغرزي ما يكفل ادراك ما يخطر بذهن الآخر بمجرد الاتجاه اليه بذهنه وبصره ، لأمكن حينئذ أن يتم التفاهم بين الناس دون وساطة من تلك الرموز الصوتية ، ولتخلصت الانسانية من دلالات ألفاظ جعلت لسلوك الانسان ظاهرا وباطنا ، مما أحل البغض والكره والنفور محل الود والاخلاص والمحبة بين بني البشر ■

لقاح للوقاية من مرض «التراخوما»

من أقدم أشكال المرض التي عرفها الإنسان في مختلف العصور مرض «التراخوما» الذي ابتلي به في وقتنا هذا ما لا يقل عن خمسمائة مليون انسان في مختلف أصقاع الكرة الأرضية وأقطارها .. هذا المرض يهاجم الانسان، وهو ما يزال وليداً رضيعاً أو طفلاً يحبو، فيجلب له الألم والتعاسة، وربما انتهى به الى فقدان نعمة البصر .. إثمن ما وهب الخالق للانسان.



أفراد من فريق أبحاث التراخوما يأخذون عينة من عين طفل مصاب بالتراخوما لدراسة نوع الفيروس ، وذلك لاكتشاف المصل الواقي لهذا المرض .

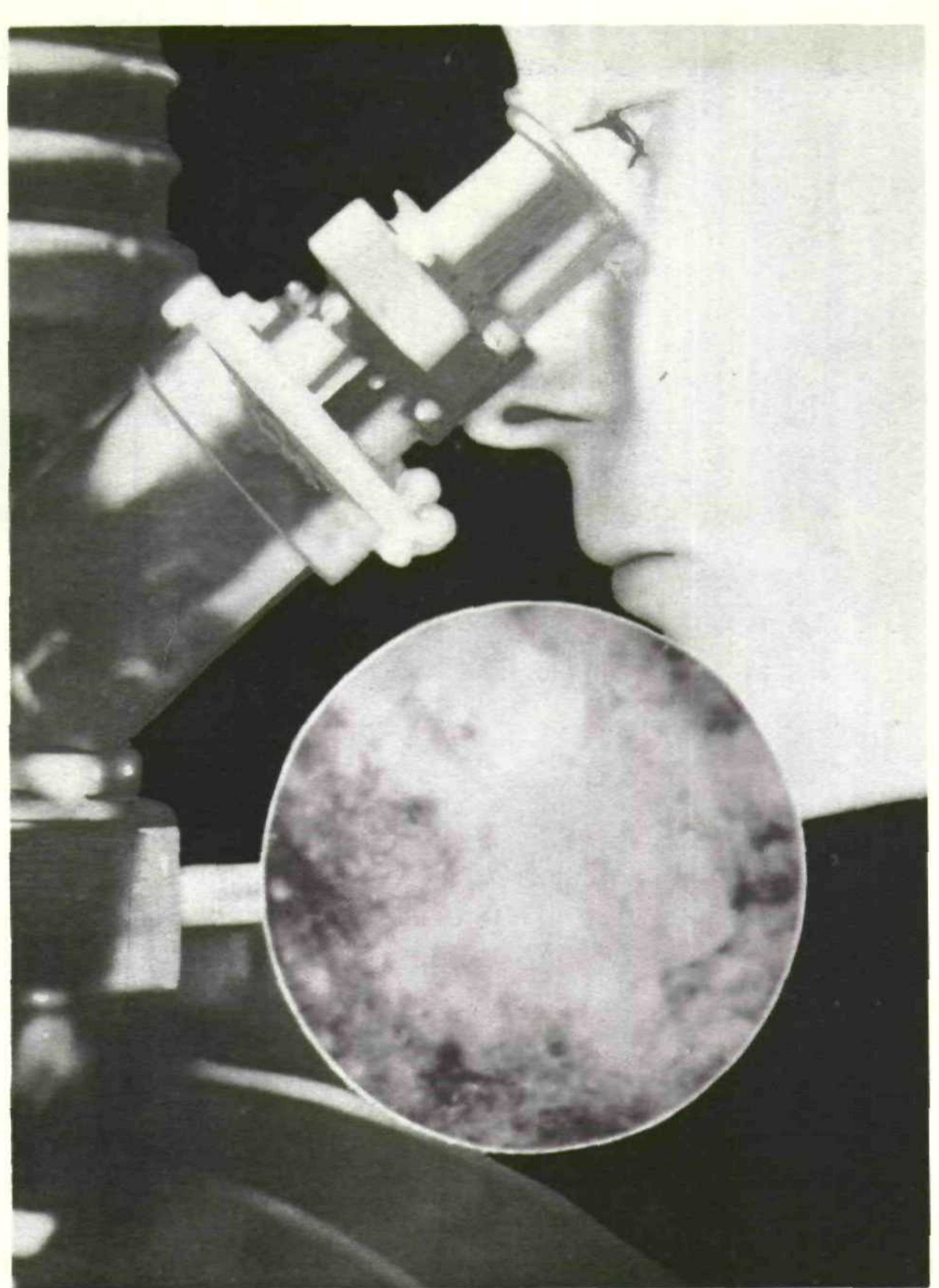
وكلمة « تراخوما » جاءت على الغالب من « تراخس — Trachys » وهي كلمة يونانية بمعنى « خشن » .. ويسهل الربط بين الكلمتين اذا تذكرنا ان من مظاهر مرض التراخوما خشونة وحكة يحس بهما المصاب في أجفان عينيه .

و « التراخوما » داء بيئي مزمن ينتقل من المرضى الى الأصحاء بالتلوّث أو الملامسة ، ويصيب الغشاء المخاطي الرقيق لباطن الجفن ، وهو ما يعرف بالملتحمة — « Conjuctiva » ، ويؤدي بالتالي الى احتقانها وتورمها واحساس المصاب بالخشونة التي تحدثنا عنها .. وان أهمل المصاب ولم يعالج ، ازداد المرض خطورة وامتد الى الأجزاء الأكثر حساسية في العين ، وتطوّر الأمر الى ضعف في قوة الابصار ، ثم الى خدش وندوب وتعتيم تدريجي في القرنية .. وأخيرا الى العمى ، حيث لا ينفع علاج ولا عقار .

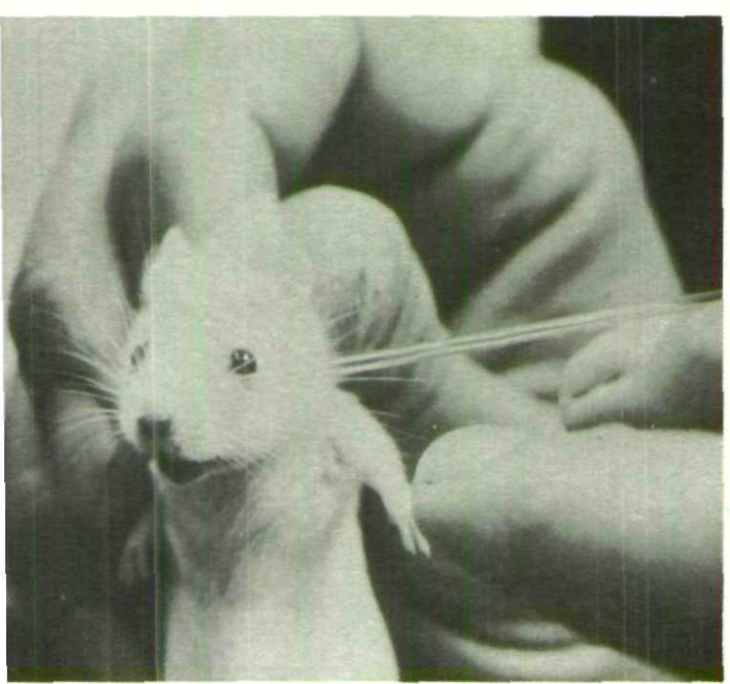
ان تقارير منظمة الصحة الدولية تشير الى أن ما لا يقل عن ستة ملايين من البشر أصيبوا بالعمى نتيجة للتراخوما . ويتركز معظم ضحايا هذا المرض في بلدان الشرق الأوسط ، وحوض البحر المتوسط ، وبلدان شرقي آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية . أما في الولايات المتحدة فقد كانت نسبة الاصابات عالية بين سكان مستوطنات الهنود الحمر في غربي الولايات المتحدة وجنوبها . ومن أجل هذا كانت حملة مكافحة التراخوما ذات طابع انساني عالمي يهدف الى خير البشرية جمعاء . والمملكة العربية السعودية هي احد البلدان التي ابتليت بهذه الآفة ، وقاسى بعض السكان فيها من ويلات هذا الداء الوبيل وبلاياه.

ومنذ خمسة عشر عاما أو يزيد أخذت شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) على عاتقها تمويل مشروع يهدف الى دراسة طبيعة هذا المرض ، ومعرفة كل مظاهره وخفاياه ، ومحاولة ايجاد لقاح قمين بوضع حد لداء التراخوما ، الذي كانت بوادره تظهر على عدد كبير من الذين ترددوا على عيادات الشركة . وقد تعهدت كلية الصحة العامة بجامعة « هارفرد » في ولاية « بوسطن » بتقديم الخبرات الطبية والفنية اللازمة لاجراء الأبحاث والدراسات ، كما وضعت « أرامكو » مختبراتها ومرافقها الطبّية تحت تصرف الفريق الذي جنّد لهذه الغاية . وتم الاتفاق الدولي على أن تنفق « أرامكو » على هذه الأبحاث ما معدّله مائة ألف دولار في السنة ، لمدة خمس سنين . وفي نهاية السنة الأولى أعلن الفريق عن احراز بعض التقدم ، حيث قام الخبراء بجلب خلايا سطحية حية من باطن الجفن الآدمية الى الظهران من الولايات المتحدة ، لتجربة انماء متعضّيات التراخوما في الأنسجة المزروعة . ومنذ بداية عام ١٩٥٥م الى نهاية المرحلة الأولى في عام ١٩٥٩م استمرت زيارات الفريق الى قرى المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية وعرف الكثير عن طبيعة المرض وعلاقته بالبيئة ، كما أخذت عينات عديدة عن افرازات عيون المواليد والأطفال المصابين ، وأجريت تجارب زراعة الأنسجة الحية للمرض في تلك العينات ، كما انتقلت الأبحاث الى بلدان أخرى ، كالهند والباكستان والجمهورية العربية المتحدة والبرتغال والحبشة وهونج كونج .

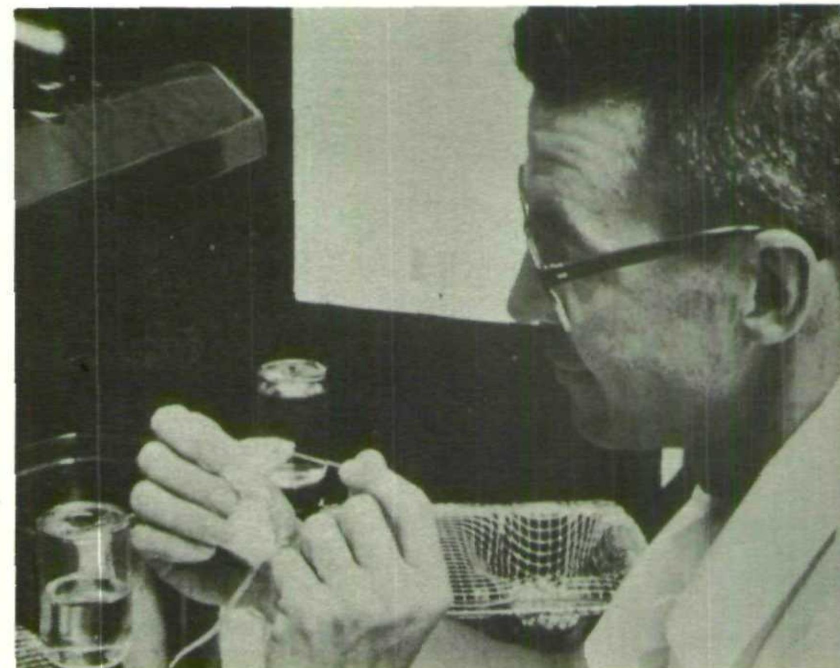
وقبيل نهـاية تلك المرحـلة ونظرا للنتائج المشجعـة جددت « أرامكو » مساعدتهـا لخمس سنوات أخرى بمبلغ زاد على نصف مليون دولار . وفي نهاية عام ١٩٦١ أعلن

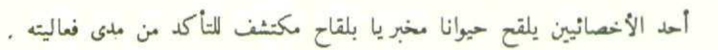


أخصائي مختبر ، يفحص أحد أنواع الفيروس المعزولة من العينات المأخوذة من الأعين بواسطة المجهر تمهيـدا لدراسته واكتشاف الأمصال الواقية من مرض التّراخوما .



يجري عادة اختبار الأمصال المكتشفة لوقاية العين من التراخوما على حيوانات مخبرية للتأكد من فعاليتها .





أحد الأخصائيين يلقح حيوانا مخبريا بلقاح مكتشف للتأكد من مدى فعاليته .

عن التوصل الى لقاح جرّب بنجاح في الحيوانات المخبرية ، ثم جرّبه أعضاء الفريق بأنفسهم وتقرر أثر النتائج المشجعة البدء في اعطائه للأطفال بعد أن أقرت ذلك وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية . وفي ربيع عام ١٩٦٢م بدىء باستعمال اللقاح ، وطعّم أكثر من ١٢٠٠ طفل ورضيع في المنطقة الشرقية ، ثم أعيد تطعيم أكثر من ٧٥٠ من هؤلاء في خريف العام ذاته . وكانت النتائج مشجعة ، فقد نجح المصل الواقي اذ ذاك في تقليل عدد الاصابات ، اذ لم يصب بالمرض سوى ٢٠ بالمائة من الأطفال الذين طعموا مرتين ، بينما ظهرت أعراض المرض في ٥٢ بالمائة من الذين لم يطعموا بالمصل .

واستمرت التجارب بعد ذلك للعثور على أفضل السبل لمكافحة مرض التراخوما واجراء المزيد من الدراسات والأبحاث . وفي نهاية عام ١٩٦٩ أعلن عن اكمال خمسة عشر عاما من هذه الأبحاث . وتم في أكتوبر من العام المذكور توقيع اتفاقية جديدة مدتها خمس سنوات بين الشركة وهارفرد ، وبلغ مجموع ما أنفق في هذه الأبحاث منذ عام ١٩٥٤م ما يزيد على ثمانية ملايين ريال !

ولقد توجهنا الى الدكتور روجر ل . نكلز ، مدير برامج « هارفرد » و « أرامكو » لأبحاث التراخوما ، والذي رافق هذا البرنامج منذ عام ١٩٥٧ ، ببعض الأسئلة لمعرفة المدى الذي وصلت اليه تلك الأبحاث .

وكان السؤال الأول : **لماذا وقع الاختيار على المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية لاجراء هذه الأبحاث ؟**

• ان هناك سببين أساسيين وراء اختيار هذه المنطقة للقيام بأبحاث التراخوما ، الأول هو أن نسبة الاصابات بهذا المرض عالية في المملكة العربية السعودية والسبب الآخر هو استعداد « أرامكو » للانفاق على هذه الأبحاث . بيد أن السبب الجوهري هو التشجيع الذي أبدته حكومة المملكة العربية السعودية لدعم هذا المشروع عن طريق تسهيل مهمة الفريق أثناء زياراته وجولاته في مختلف القرى والمناطق . وكانت القطيف أول منطقة زارها الفريق ، وقام بفحص أطفالها من أجل عزل الخلايا الحية « المتعضّيات » لمرض التراخوما . بيد أن هذه الدراسات شملت فيما بعد مناطق أخرى من المملكة ، كالاحساء ونجد والحجاز ، ثم تعدّتها الى مصر ولبنان والكويت والحبشة وكينيا والهند والبرتغال والولايات المتحدة .

أما السؤال الثاني ، فكان : **هل أمكن الكشف عن أسباب مرض التراخوما ، ومتى توصل العلم الى ذلك ؟**

• لقد ساد الاعتقاد في البداية بأن الفيروس هو السبب في مرض « التراخوما » ، ولكن الأبحاث والدراسات والنتائج التي توصل اليها فريق الأبحاث أثبتت بطلان هذا الاعتقاد ، كما برهنت على أن « التراخوما » لا ينتج عن أسباب الأمراض المعروفة ، كالفطريات أو البكتيريا أو الفيروس أو جراثيم « الركتسيا — Rikettcia » . ولا أستبعد أن يتم تصنيفها في مجموعة جديدة متميزة خاصة بها . ولقد تم فصل متعضّيات « التراخوما » في عام ١٩٥٨ ، وعزلت أكثر من ٤٠٠ سلالة مأخوذة من أعين أطفال المنطقة الشرقية . ومن حسن الحظ أن هذه السلالات تقع ضمن مجموعتين رئيسيتين ، وهو أمر يجعل مهمة الحصول على لقاح لمقاومة المرض عملا أسهل نسبيا ، اذ لو زاد عدد تلك المجموعات لصعب التوصل الى ذلك اللقاح الفعّال .

وكان سؤالي الثالث هو : **لقد مضت خمس عشرة سنة مذ بدأت هذه الأبحاث ، فأين نقف الآن ، وما هي القيمة العلمية للنتائج التي توصلتم اليها ، وكيف يتم استحضار اللقاح ؟**

• ربما يتساءل البعض عن القيمة العلمية أو العملية لهذه الأبحاث ، وأستطيع أن أقول أن المعلومات التي توصلت اليها دراسات الفريق ذات أثر فعّال وقيمة علمية لا تقدر ، فان الكثير الذي

عرف عن طبيعة هذا الداء كان نتيجة دراساتنا التي عمّمناها على المؤسسات الطبية المختصة في العالم ضمن ما يزيد على خمسين نشرة طبية أصدرها فريق الأبحاث .

ونحن الآن نقف على أبواب مرحلة مهمة جدا من مراحل البحث والدراسة ، ولقد انتهينا في عام ١٩٦٩ من تقييم اللقاح الذي جرّب في عام ١٩٦٢ وطعّم به ما يزيد على خمسة آلاف طفل ، ولقد نجح ذلك اللقاح نجاحا محدودا في وقف انتشار التراخوما ومنع الاصابة به . ويقوم الآن فريق من أربعة علماء ، يعاونهم عدد من الفنيين في مختبرات هارفرد ، بتحضير لقاح جديد يجرّب أولا في بعض حيوانات المختبر ، فان أدى الى نتائج طيبة سيقوم أعضاء الفريق بتجربته بأنفسهم فان نجح ، سوف ينتقل الفريق من « هارفرد » الى هذه البلاد حيث يبدأ استعمال اللقاح الجديد الذي لنا كبير الأمل في أن يكون العلاج الناجع لهذه المشكلة الانسانية المستعصية .

أما عن كيفية استحضار اللقاحات فاننا نقوم عادة بعزل الخلايا الحية للتراخوما من أعين المصابين ، ثم نحقن بها أغشية البيض المخصب ، أي الصالح للتفقيس ، وتمر هذه العملية بمراحل صعبة كثيرة التعقيد قبل أن تؤخذ المتعضّيات من البيض وتعزل ، وتجرى عليها عمليات التنقية والتركيز قبل أن يتم تعقيمها كيميائيا تمهيدا لاستعمالها على هيئة لقاح .

وكان سؤالي التالي والأخير : **هل توجد مجهودات مماثلة غير مجهود « هارفرد – أرامكو » في هذا السبيل ؟**

• في الواقع أن عددا لا بأس به من المؤسسات العلمية الطبية يقوم بجهود حميدة في ميدان مكافحة « التراخوما » ، فهناك على سبيل المثال معهد « ليستر » بلندن ، وجامعة « واشنطن » في « سيتل » بالولايات المتحدة ، وجامعة « كاليفورنيا » ، والمعهد الوطني للصحة في العاصمة الأمريكية واشنطن . وتتبادل هذه المؤسسات الأبحاث والدراسات والنتائج التي تتوصل اليها . أضف الى ذلك أن هنالك مجمعا دوليا خاصا بأبحاث التراخوما ، وقد قامت جامعة « هارفرد » بدعوة هذا المجمع للانعقاد في صيف هذا العام للاطلاع على المدى الذي وصلت اليه الأبحاث والتداول في أمر المستقبل وتوحيد السبل والخطط التي تهدف الى حل الألغاز المتبقية في هذا الميدان ■

اعداد : نسيم مدانات   تصوير : برنت مودي



يعكف الأخصائيون في مختبرات أرامكو وجامعة « هارفرد » على اعداد أمصال من أنواع الفيروس التي عزلت من عينات مأخوذة من أعين الاطفال .



أخصائي في أبحاث التراخوما بأرامكو أثناء دراسته لأحد أنواع الفيروس الناقلة لمرض التراخوما .

سرّ الصّنعة

بقلم الدكتور رؤوف سلامه موسى

في تاريخ العلوم سؤال بارز وغريب . اذ علم الكيمياء هو من أقدم العلوم التي عرفها الانسان القديم . وقد قيل أن لفظ كيمياء مشتق من كلمة « كيمي » أو « خيمي » التي كانت تدل في العصور القديمة على أرض مصر الزراعية السوداء . فالعلم « الأسود » أو الفن « الأسود » الذي نسب الى مصر القديمة وتربتها ، قد عرف في الحضارات القديمة منذ عصر البرونز . وقد شمل استخراج المعادن وتعدينها وصهرها ، كما شمل الصباغة والتجهيز والتنميق والتذهيب . وهي كلها تعتبر من أقدم النشاطات التي عرفها الانسان الآخذ في التحضر والتطور .

فلماذا اذن انطفأ وهج هذا العلم (الا من بعض الوميض زمن النهضة العربية) طوال ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ؟ أي منذ عصر البرونز حتى ظهور العلم الحديث في بداية القرن السابع عشر .

الحقيقة أن علوم الكيمياء علوم تجريبية بحتة . وقد ازدهرت ، عن ضرورة ، في حضارات الأنهار التجريبية القديمة ، أي في مصر وبابل والهند . ولكنها أيضا من أصعب وأشقى المهن . ولهذا يقول « برنال » : ان علم الكيمياء ، رغم أنه أقدم العلوم التجريبية التي عرفها الانسان القديم ، ومع شدة احتياج المجتمع في كل زمان ومكان لما يؤديه علماؤه من وظائف ضرورية ، ظل دائما على الدرج الأسفل الملاصق للقاع . فليس هناك أي مجال لمقارنة بين عالم كيماوي قديم وآخر طبيب أو فلكي أو رياضي أو فيلسوف.

ولهذا أيضا اختص بالعمل في علوم الكيمياء ، منذ أزمنة سحيقة في القدم ، فئات غير مرموقة من المجتمع ! . أو انتقل من هذه الفئات الى أيدي المسجونين أو الأسرى أو العبيد .

وساعد على هذا بالطبع ما أبرزته المراحل التالية من النهضة الاغريقية من تضاد كاذب بين عمل العقل واليد الانسانيين .. هذا للحر ، وذاك للعبد . ثم كثرة اعداد العبيد بسبب تزايد الحروب والفتوحات واتساع رقعة الامبراطورية الاغريقية .

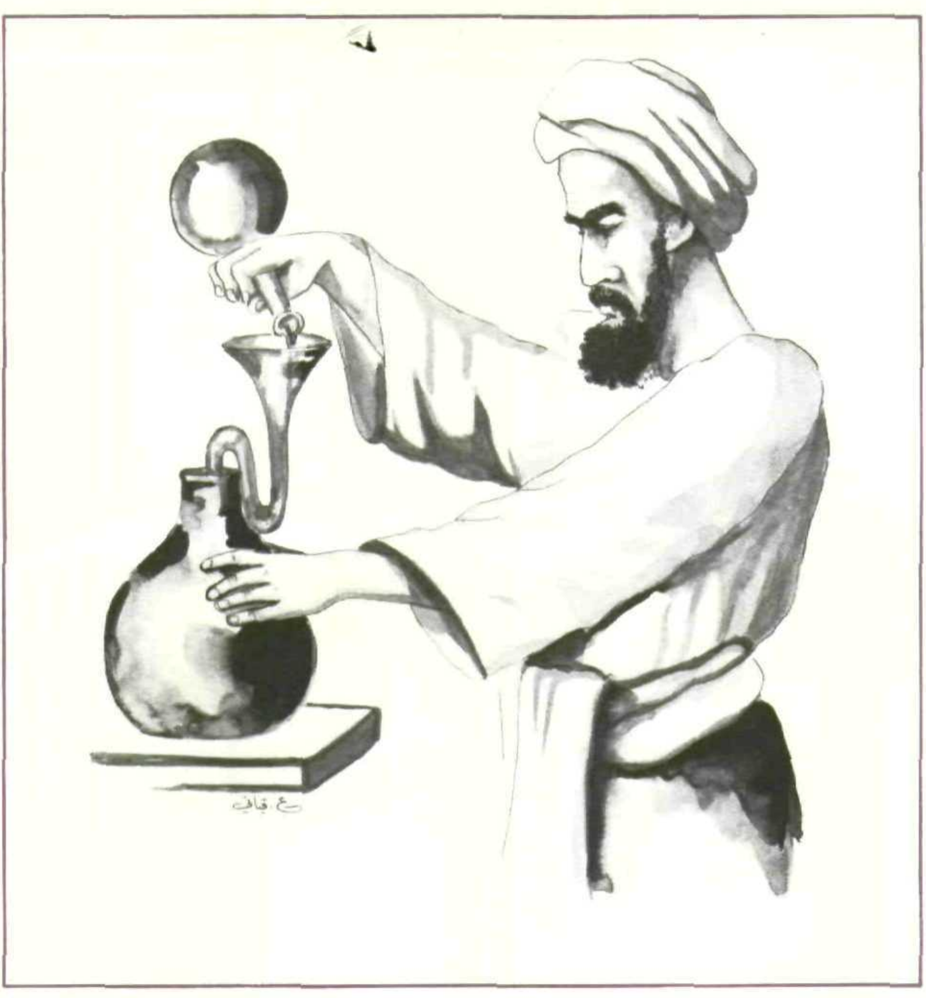
ولكن النهضة العربية ، منذ القرن الثامن الى الثالث عشر ، كانت ولا شك نهضة علمية وتجريبية فذة وصحيحة ، كما كانت تحررا وانفتاحا وتفاعلا مع الحضارات الأخرى المعاصرة والسالفة لها . وفي هذا كله طابقت تلك النهضة المرحلة الأيونية الأولى من حضارة الاغريق ، بل وتجنبت النقائص التالية فيها . فقد عاد علماء النهضة العربية الأفذاذ الى تجريب مصر وبابل والهند ، فاشتغلوا بأيديهم ، وعملوا في المعامل ، كما استضاءوا بنظريات الاغريق المحدثين وغيرهم آنذاك .

وقد وقعوا هنا على تفكير علمي و « أيوني » صحيح ، أثمر علما تجريبيا وكشوفا ممتازة ، كما عند ابن سينا والبيروني وغيرهما . ووقعوا أيضا على تفكير أفلاطوني عقيم ، زاد من بلبلتهم ، وأفنى أعمارهم ، وأضاع من جهودهم ، كما في البحث عن « سر الصنعة » و « الخميرة » و « حجر الفلاسفة » و « أكسير الحياة » وغيرها . فهذه كلها ثمار البذور الأفلاطونية التي زرعتها مدارس الفلاسفة الثلاثة : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو . وأما البذور العربية الصحيحة ، فقد أثمرت علوما تجريبية وانجازات معملية واضحة ، مثل الكشف عن الكحول والبوتاس ونترات الفضة والذهب ، وصناعة الزجاج والخزف والورق ، والصباغة وتهيئة الجلود .. الخ .

وهذا هو ما يجب أن نوضحه ونفخر به ، وأن نبين الخطأ الذي وقع فيه بعضنا بتأثير مدرسة خاطئة وغريبة عنا .

ظن « طاليس » ، أول الفلاسفة الأيونيين ، أن الماء أصل كل شيء . ولكن « انكسمنز » أضاف الى عنصر الماء عنصرا جديدا هو النار . ونقل « انكسمنز » فعل العنصر الأول الى الضباب، وقال بأن النار تحيط بماء كوكبنا فتحيله الى ضباب وتفجر منه الكرات الى كوكبنا والى الفضاء . ثم تبلورت نظرية العناصر الأربعة : التراب والماء والهواء والنار . وأيد زعيمهم « هيراقليطس » هذه النظرية ، وزاد من أهمية النار . وقال ان عناصر الأرض في « حركة » و « تحول » دائمين . وأن كل مادة أرضية فيها من عناصر الأرض الأربعة ، وأن هذه العناصر متداخلة فيها ، ومتغيرة ومتطورة . ودلل على هذا بأننا اذا أحرقنا نباتا ، فان بعضه يتحول الى نار ، وبعضه الى دخان يتصاعد في الهواء ، ويتجمع بعضه في قطرات ماء ، ويتحول الباقي الى تراب .

وسار على دربه هذا « امبدوكليس » ، الذي أضاف قائلا بأن كل مادة يتجاذب صورتها وكثافتها عنصران ، وأن كل جسم ، مهما بدا ثابتا ، فيه شيء من « التوتر » . ولكن « أفلاطون » ركز على « جوهر » المادة لا على صورتها أو



كثافتها . فكما أن للانسان روحا ، والروح فيه أهم من الصورة ، كذلك للمواد جوهرها الباقي . وأما صورتها ، فكجسم الانسان ، متغيرة وزائلة .

ومن هذه النظرة الفلسفية الأفلاطونية ، اقترنت تسمية بعض المعادن الأرضية بكواكب معروفة يومئذ ! . فالذهب يمثل الشمس ، والفضة تمثل القمر ، والنحاس يمثل الزهرة ، والزئبق يمثل عطارد ، والحديد يمثل المريخ ، والصفيح يمثل المشتري ، والرصاص يمثل زحل .

ثم زاد « أرسطو » الى العناصر الأربعة عنصرا جديدا هو العنصر السماوي الذي تتكوّن منه الكواكب الأخرى ، ولا يظهر مثيله على الأرض . ولما كان التحوّل والتغيير ظاهرتين ممكنتين (على ما سبق وحدد هيراقليطس ، وامبدوكليس ، وأفلاطون) بين عناصر الأرض الأربعة ، وكذلك الهبوط والارتفاع بين الدوائر الأرضية الأربعة ، فليس من الممكن اجراء أي تغيير في عنصر السماء الخامس أو في الدوائر السماوية والكوكبية الخمس والخمسين . لأن للسماوات قوانينها ونواميسها المختلفة تماما عن قوانين الأرض .

كل هذا الطراز الافلاطوني كان لا بد وأن يصل الى العرب ، وأن يتأثروا به تأثرهم الشديد بأصحابه . فنجد طبيبا ممتازا كالرازي ينخدع ببعضه ، وينفق سنين كثيرة في المحاولة والتأليف في جوانبه . غير أن هذا التراث قد تطور عند بعض العلماء العرب ، فجعلوا العناصر الافلاطونية الأربعة ثلاثة ، هي في الرأي الغالب : الكبريت والزئبق والملح وقيل أن الكبريت هو رمز النار القديمة ، وهو الذي يحترق ويعود الى الهواء . والزئبق هو السائل الثقيل (الماء) الذي يسيل بين الأصابع . والملح هو العنصر الباقي الذي لا يحترق ويعود الى الأرض .

وقيل أن اتحاد الكبريت والزئبق ، وهو الذي يكون كبريتيد الزئبق الأحمر اللون ، هو الذي غرر بهؤلاء العلماء المجربين والفلاسفة العظام . فاللون الأحمر الفاقع كان عندهم أكثر جمالا ، وأكثر « نبلا » من لون الفضة الأبيض أو الذهب الأصفر .

ولكن البحث لم يتركز على خواص هـذه المعادن وتفاعلاتها ، بقدر ما تركز على « سر الصنعة » أو الصفة التي يمكن بها تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب نفيس ، أو « الخميرة » أو « حجر الفلاسفة » أو « الأكسير » الذي تضاف منه كميات مناسبة الى المواد المختلفة ، فتتحوّل هذه المواد بالعمليات المناسبة أو تتطور بها ، الى مواد أخرى أرقى وأثمن .

وقد سبق ان قال القدماء أن عناصر اللون محدودة ، وأنها في حالة حركة وتغير وتطور دائم ، وأن الجوهر واحد ، والصورة متغيرة . وتغيير اللون والصورة يؤديان الى تغيير الجوهر . فهذه هي « طبيعة الأشياء » في الفلسفة الافلاطونية بل هي كذلك بعض ما نستخلصه من مواد الاختبارات الكيمائية ونظرياتها الحديثة حين نضيف اليها « العامل المساعد » فنحصل من مواد معروفة على أخرى جديدة .

ونلاحظ أن النظرية العربية « الثلاثية » ، وهي التي حلت محل النظرية « الرباعية » القديمة ، قد انتقلت الى أوروبا مع ما انتقل اليها من تراث العرب القدماء . فنظرية الكبريت والزئبق والملح كانت ، بالمقارنة بالنار والهواء والماء والتراب ، نظرية تجريبية حديثة تشهد لها براهين كثيرة . ولهذا تلقفتها المدرسة العلمية الجديدة في أوروبا بالقبول والتعضيد . بل نجد المجدد العلمي السويسري باراسيلس (١٤٩٣ – ١٥٤١م) يحرق مؤلفات أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، ويحتضن النظرية العربية ويدرسها في معهده . وكان هذا طبيعيا ، لأن النهضة الأوروبية الحديثة كانت في صميمها ، كالنهضة العربية القديمة ، علمية وتجريبية ومجددة .

وقد استمرت معارف ونظريات الكيمياء القديمة على ما أضاف اليها العرب حتى أوائل القرن السابع عشر . فتغيرت الصورة القديمة بكشوف ونظريات « دالتون » ، و « بريستلي » و « لا فوازييه » ..

فلله در البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨م) وابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م) مع غيرهما من علماء العرب الأفذاذ ، الذين تصدوا للنظرية الاغريقية الرباعية ، مثلما تصدوا للنظرية العربية الثلاثية ، حين رفضوا « جوهر المادة » و « سر الصنعة » ، وأكدوا أن الاختلافات بين المعادن أكبر في حقيقتها من مجرد اختلاف الصورة أو اللون .. وهو ما لم يتعارف عليه العلم الانساني ، ويتقبله ، ويسير عليه ، حتى بداية القرن الثامن عشر ■



الوجه... الحسن

على الطرف الشمالي من الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، وعلى ربوة صخرية مستوية، ترتفع عن مستوى سطح البحر خمسين متراً، تقف بخيلاء مدينة صغيرة رائعة البهاء، ناصعة البياض حباها الله بموقع ساحر ومناخ فريد، تلك هي الوجه.. إسماً ومعنى.



منظر عام لمدينة الوجه الواقعة على ساحل البحر الأحمر في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية . ويحتضنها خليج طوله كيلومتر ونصف الكيلومتر وعرضه يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٥٠ مترا .

غادرنا مطار جدة الى « الوجه » صباح يوم من أيام شهر « حزيران » القائظ ، وكانت الطائرة تحلق على ارتفاع ١٤٠٠٠ قدم محاذية الساحل في مسارها .. كتل الضباب كالجبال تحجب مياه البحر . وتزاحمت الأفكار السوداء في رأسي عن الوجه ، ككتل الضباب التي كنت أراها من خلال النافذة : قد تكون الوجه قرية متواضعة تضم بضعة بيوت لم تمتد اليها يد التطور والتقدم .. الحرارة فيها شديدة ، والرطوبة عالية ، شأنها في ذلك شأن معظم البلدان الساحلية في المملكة ، أما المرافق العامة فقد تكون الوجه خلوا منها .

هذه الأفكار أخذت تستبد بي ، ولم أتخلص منها الا عندما حطت بنا الطائرة في مطار الوجه . وما أن فتح باب الطائرة حتى استقبلتنا نسائم باردة منعشة على غير ما كنت أتوقع ، برغم أن الشمس كانت تزحف الى كبد السماء . وأخذت تلك الصورة القاتمة السوداء التي رسمها خيالي تتبدد عندما نزلنا في المدينة البيضاء .

مَوقِعٌ خلاّبٌ وَمنَاخٌ فَريدٌ

ساءني أن ياقوت الحموي لم يذكر شيئا عن الوجه في كتابه « معجم البلدان » وكذلك لم يمر بهذه البلدة الجميلة كثير من الرحالين العرب ، كابن بطوطة ، وابن جبير ، والادريسي ، وغيرهم . وهذا يجر الى الاعتقاد بأن الوجه ليست قديمة ، فقد لا يتجاوز عمرها ٣٠٠ سنة . واذا نظرنا الى « المصور الجغرافي » نجد أن الوجه تقع على خط عرض ٢٦° درجـــة و ١٤ دقيقة شمالا ، وخط طول ٣٦° درجة و٢٧° دقيقة شرقاً .

ويحيط بها من الجنوب خليج صغير يبلغ طوله حوالي كيلومترين ، وعرضه ٢٥٠ مترا ، ينتهي فيه وادي « زريب » الفسيح الذي ينحدر من جبل « الحميرة » في الشرق على بعد ١٢ كيلومترا من الوجه . وجدير بالذكر أن الحي القديم المسمى « محلة الساحل » يقوم على محاذاة الخليج الجميل ، حتى أن أمواجه تتكسر برفق على جدران البيوت . أما الوجه الجديدة فتقوم على تلة شاهقة تتصل بالحي القديم بدرج من الاسمنت له حواجز من المواسير ويبلغ طوله ١٤٠٠ متر . وتبدو الوجه من الطرف الجنوبي للخليج مع ذلك السور كأنها صورة رائعة احتواها اطار بديع .

والى جانب ذلك الموقع الممتاز ، فان مدينة الوجه تتمتع بمناخ فريد ، خلافا للمناطق المجاورة لها من جميع الجهات ، فتتراوح درجة الحرارة في الصيف نهارا بين ٢٦° و ٢٨° مئوية وليلا بين ١٨° و ٢٢° . وهواؤها عليل يخلو مـــن الرطوبة ، وعند الظهيرة تهب على المدينة نسائم البحر اللطيفة ، فاذا ما داعبت عينيك فانها تبعث في جسمك خدرا لذيذا لا تلبث معه الا أن تستسلم لاغفاءة هادئة . أما شتاؤها فمعتدل لطيف . وهنا لا أملك الا أن أقول أن موقع « الوجه » الفريد يجعل منها مصيفا نادرا فـــي في المملكة ومركزا سياحياً ممتازا صيفاً وشتاء ، نظرا لاعتدال مناخها ، وما تمتاز به من شواطىء جميلة ، وخليج هادىء ، وجبال سامقة ، وسهول فسيحة ، وأودية عديدة . أضف الى ذلك آثارها ،



منظر عام للجزء الجنوبي الشرقي من مدينة الوجه ويبدو في أقصى الصورة مدرستان للبنين أحداهما متوسطة والأخرى ابتدائية .

وطراز بيوتها ، وأسلوب حياتها . وفوق ذلك كله سماحة أهلها ، وطيبتهم ، وكرمهم ، وتعاطفهم ، ونشاطهم ، وحبهم للغريب . ان اقامة فندق سياحي حديث فيها سيعود عليها بالنفع العظيم ، ويجلب اليها المصطافين من جميع أنحاء المملكة ، بل ومن الخارج أيضا .

شروق .. وغروب

تبدو الوجه في أروع بهائها ورونقها قبيل شروق الشمس وقبيل غروبها .. عندما تقف على حافة الربوة عند الزاوية الجنوبية الغربية ، التي تطل على وادي « زريب » الأخضر ، ومن ورائها يقف شامخا جبل « الحميرة » ذو الصخور النارية الداكنة ، والقمم المسنونة كالحراب هناك مع خيوط الفجر الأولى سرح ناظريك في الوادي الفسيح ، وارقب ذكاء وهي تتململ خلف القمم في خفر ودلال ، وشاهدها وهي ترسل أشعتها الذهبية على أشجار النخيل في الوادي ، وعلى صفحة المياه اللازوردية في الخليج ، وعلى سطوح البيوت المعلقة على حافة الربوة . ثم ارقب ذكاء ثانية وهي تغرق في اللّجة شيئا فشيئا مخلفة وراءها وشاحا أحمر .

وفي الصباح الباكر تشاهد البدو قادمين من الشرق مع مواشيهم وابلهم المحملة بالفحم الخشبي والسمن ، والصوف ، وحشيش « القبا » المجدول كالضفائر ، وهم متجهون نحو السوق القديم في محلة « الساحل » . كما أنك تشاهد صيادي الأسماك في قواربهم الصغيرة ، وهم عائدون من رحلات الصيد في الليل ليلقوا بأحمالهم في سوق السمك القائمة على طرف الخليج الشرقي .

مجتمع نشيط

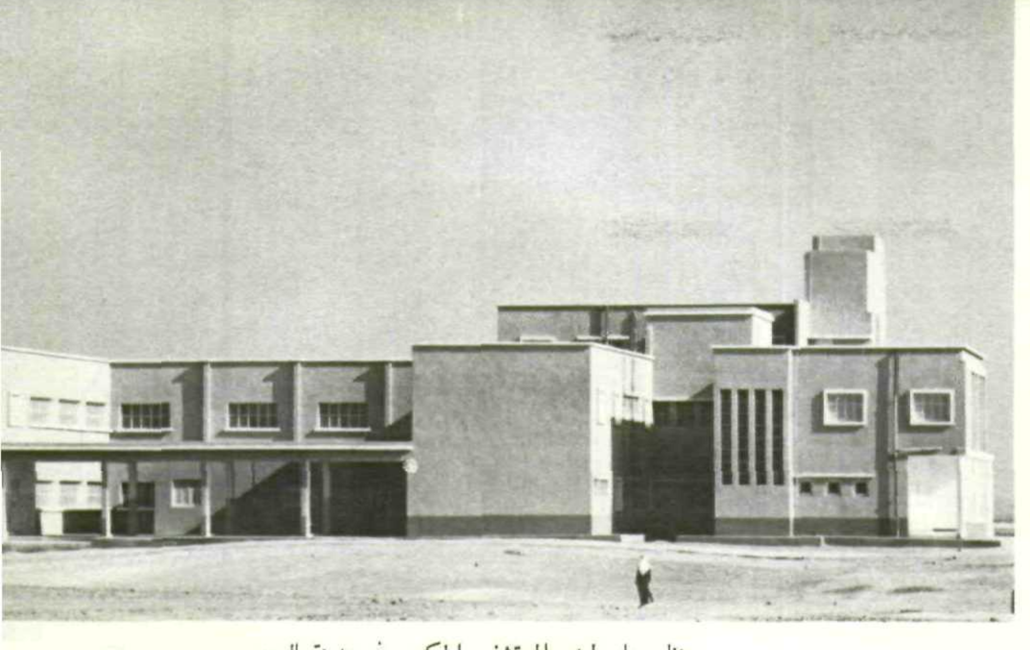
يذكر محمد لبيب البتنوني في كتابه « الرحلة الحجازية » عام ١٩١٠م أن في الوجه نحو أربعين بيتا صغيرا وأن عدد أهلها لا يزيد على ٥٠٠ نفس كلهم تقريبا عائلة واحدة تسمى عائلة « البديوي » . هذا ما ذكره البتنوني عن حجم الوجه وعدد سكانها ، الا أنها الآن تضم زهاء ١٥ ألف نسمة ، وان يد العمران أخذت تنشط في الآونة الأخيرة ، فامتدت على طول الهضبة شمالا وشرقا . وقد قامت البلدية بتخطيط جديد للمدينة ، فشقت الشوارع الواسعة ، وبنت الأسواق الحديثة .

وأهالي الوجه شعارهم النشاط والعمل . فهم يعتمدون على التجارة ، وصيد الأسماك ، والزراعة على نطاق ضيق ، الا أن كثيرا منهم يعملون في أجهزة الدولة .

واذا كنت في الوجه فحذار أن تلقي بورقة في الشارع ، أو تطرح بعض النفايات خارج منزلك أو دكانك ، والا عرضت نفسك لدفع غرامة قدرها « خمسون » ريالا . ولن يتهاون رئيس البلدية السيد « عباس حمزة أحمد » في هذا الأمر طالما أنه أمر بوضع برميل أمام كل بيت لجمع القمامة . وفي أثناء النهار تمر سيارات البلدية على هذه البراميل وتطرح محتوياتها بعيدا عن المدينة . ويتقبل الأهالي تلك الأنظمة بصدر رحب بل ويثنون على من يطبقونها . ولهذا كانت الشوارع نظيفة ، والأسواق القديمة منها والحديثة تخلو من كل ما يكدر النظر .

الوجه وضواحيها

كانت الوجه في عهد العثمانيين مركزا تجاريا مهما لقلب الجزيرة . وقد أطلق عليها الأتراك لقب « برنجي قضاء » لتقدمها . وقد كانت لها علاقات تجارية مع مصر والسودان ، اذ كانت



منظر عام لمبنى المستشفى الحكومي في مدينة الوجه .

الرواشن الجميلة .. من أساليب البناء القديمة في الوجه ، لكنها اليوم في طريقها الى الزوال .

تصدر لهما ، بالسفن الشراعية ، الأغنام والابل والسمن والصمغ والفحم الخشبي والفسيخ ، وتعود السفن محملة بالأرز والسكر والمنسوجات والعسل الأسود والجبن والبصل والفاكهة والذرة وزيت الحوت .

وكانت الوجه تستمد شهرتها وأهميتها قديما من ركب المحمل الذي كان يمر بها ، فكانت محطا لرجال المحمل ، حيث كانت تنصب فيها الأسواق وتوزع الهبات على الأعراب . وتضم الوجه الآن أربعة أحياء هي محلة « الساحل » ومحلة « القرفة » و « النزلة الشمالية » و « النزلة الشرقية » المعروفة « بالفريعة » . ولكل محلة عمدة يتولى شؤونها الخاصة . وفي بلدة الوجه عدة « هجر » ينزل فيها البدو ، وخاصة في فصل الصيف . وغالبية البدو ينتمون الى قبيلة « بلي » والبعض الى « الحويطات » . وتتوفر آبار المياه في هذه الهجر ، ويقوم البدو بزراعة الخضار ، لا سيما في بطون الأودية التي أصابها السيل . أما في فصل الربيع فينتقلون الى مناطق أخرى ، طلبا للكلأ والعشب . وأهم هذه الهجر هي : الهرابــة ، والمنجور ، والنابع ، والبركة ، والحفيرة ، والكرّ ، وبدا ، وأبا القزاز ، وخربه ، وتفه ، وأبو زريبات ، والحسنة . وتمتد منطقة الوجه شرقا حتى تصل الى سكة حديد الحجاز ، وجنوبا الى وادي الحمض على بعد ٧٠ كيلومترا ، وشمالا الى وادي « دما » على بعد ١٢٠ كيلومترا . وتكثر الأودية في هذه المنطقة ، وكلها تنحدر من جبال السروات ، وتتجه نحو البحر الأحمر . ففي شمال الوجه تقع الأودية الآتية : زاعم ، وحرامل ، والسيح ، وعنتر ، وثلبه ، وسعف . وفي جنوب الوجه يقع وادي زريب ، والمياه ، والعرجة ، والمسماة ، والمرّا ، والرّمحيّة ، ووادي الحمض . وفي شرق الوجه يقع وادي بدا .

طابع البناء في الوجه

تتبع بيوت الوجه القديمة في طراز بنائها النمط المعماري السائد في حوض البحر الأبيض المتوسط . فبيوت محلة « الساحل » ، التي تعتبر أقدم حي في المدينة ، مبنية بالحجارة الكلسية والطين ، ويجري تلبيس الجدران من الداخل والخارج بطبقة من الجص (النورة) . ويلاحظ أن الجدران مرتفعة ، اذ يصل ارتفاع الجدار الى أكثر من خمسة أمتار . وتتميز الجدران بكثرة شبابيكها ،



الواجهة الأمامية لمدخل قلعة الزريب وقد نقش عليها بعض الكتابات الأثرية .



بقايا مئذنة تابعة لجامع أثري في قلعة الزريب في مدينة الوجه .

تمتاز الوجه بنظافة شوارعها وهدوئها ، ويرى أمام كل منزل وعاء لسقط المتاع وضعته البلدية ، وفرضت غرامة قدرها خمسون ريالا لكل من تسول له نفسه رمي النفايات في الشوارع .

فيحوي كل جدار بين أربعة وخمسة شبابيك صغيرة متلاصقة لا يزيد طولها وعرضها على نصف متر ، وهي قريبة من السقف ومشبكة بقضبان خشبية مزخرفة . أما السقف فهو مؤلف من الحصير المخلوط بالطين ، ومن تحته يبسط سعف النخيل ، ويقوم السقف على جسور من جذوع شجر السّدر وأعمدة من خشب القندل المتين . وفي الواجهة الأمامية يقوم الباب الرئيسي للبيت ، وهو مقنطر في الغالب ، وفي وسطه فتحة تسمى « خوخة » مقوسة من أعلى ، تستعمل للدخول والخروج دون الحاجة لفتح الباب الكبير . ولما لم تكن في ذلك الحين أقفال ومفاتيح حديدية استعيض عنها بعمل « ضبّة » ومفتاح من الخشب ، ولكل ضبة سرّها الذي لا يعرفه سوى صاحب البيت والنجار .

فاذا ما تركنا بيوت الساحل وصعدنا الى البيوت المبنية على الربوة ، نجد أنها تشبه في جوهرها بيوت الساحل ، من حيث استعمال الحجارة الكلسية ، الا أنها تختلف في تصميمها . فالجدران تتألف من أربعة « مداميك » ارتفاع الواحد منها متر ، ويوضع بين المدماك والآخر ألواح خشبية ليزداد الجدار بها تماسكا . أما الشبابيك فهي واسعة ولا يقل عددها عن ثلاثة في كل جدار . ويتألف السقف من ألواح خشبية تعتمد على أعمدة من خشب « الحور » . وللبيوت المؤلفة من طابقين رواشن خشبية مزخرفة ذات أفاريز تدل على ذوق رفيع . ويغلب أن يكون للبيت سلم خشبي خارجي يؤدي الى الطابق الثاني . أما اللون الغالب الذي يستعمل في طلاء الشبابيك والأبواب والجدران من الداخل فهو اللون الأزرق أو الأخضر . فالمدينة ببيوتها البيضاء الناصعة تنم عن صفاء قلوب أهلها وطيبتهم . أما الآن فقد أخذ بعض الأهالي يتجهون الى استعمال الاسمنت المسلح والطوب في البناء .

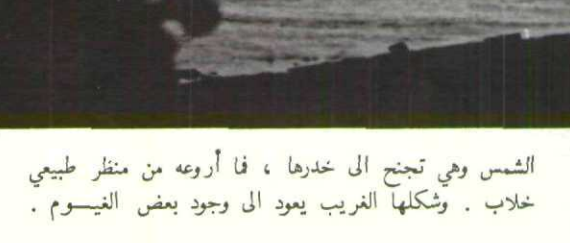
ثروة سمكية هائلة

تنفرد الوجه بتوفر جراد البحر « ستاكوزا » في مياه شواطئها ، وهي تكاد تستمد شهرتها منه ، وجراد البحر حيوان بحري بشع المنظر ، يتراوح طوله بين قدم واحدة وثلاث أقدام ، ويعيش في مياه الشواطيء الضحلة في الشعاب الصخرية وهو يختبيء في النهار في شقوق الشعاب ويخرج في الظلام ليأكل الطحالب والأعشاب البحرية . وله عشر أرجل طويلة ، وأربعة قرون



يمتاز جراد البحر عن غيره من الأسماك بلحمه اللذيذ الطعم ، ويجري صيده عادة أثناء الليل حيث يصطحب الصياد معه ، فانوسا يسلط نوره عليه فيتسمر في مكانه .





الشمس وهي تجنح الى خدرها ، فما أروعه من منظر طبيعي خلاب . وشكلها الغريب يعود الى وجود بعض الغيوم .

جراد البحر من الحيوانات البحرية العديدة التي تزخر بها مياه مدينة الوجه .

للاستشعار ، وذيل عريض يتألف من عشر فقرات وينتهي بزعنفة عريضة ، وله مفصل بين الذيل والظهر ، كما ان له أسنانا قاطعة ، وعينين سوداوين بارزتين يحركهما في جميع الاتجاهات ، وفوق كل عين شوكة تحميها . ومنه ما هو أسود أو رمادي أو أشهب .

أما طريقة صيده فغريبة ، اذ يذهب الصيادون لصيده ليلا عندما يكون القمر في المحاق أو حوالي ذلك . ويأخذ الصياد معه مصباحا يدويا ، ويدخل في الماء على سيف البحر وعندما يعثر على جراد البحر يسلط ضوء المصباح على عينيه فيتسمر جراد البحر في مكانه ، وعندها يؤخذ باليد . ويمكنه البقاء حيا خارج الماء نحو أربع وعشرين ساعة .

وأرغب جزء في جراد البحر كتلة بيضاوية من اللحم الأبيض يتراوح وزنها بين ١٠٠ و ٢٠٠ غرام تستخرج من عظم الذيل ، ويبلغ ثمنها نحو ١٥ ريالا .

أما الأسماك فمتنوعة ، ويجري تصنيفها الى بياض وسمار . أما السمك البياض فيخلو من الحسك ، ويشتد الطلب عليه ، ومنه الدرّاك ، والقزه ، والصليخة ، والكظم ، والعقام ويطلقون عليه اسم « ذئب البحر » ، وهو من الأسماك المؤذية . ومن الأسماك المشهورة البوري الذي يحول الى فسيخ ويصدر الى الأردن ، وكذلك يكثر سمك القرش ، والحصان ، والفرس الذي يصل طول الواحد منها الى ثلاثة أمتار .

ومن أسماك السمار : البهاوا ، والناجل ، والتوينا ، والشطف ، والسيزانا ، والقاصة ، والعمبرة ، والحريدة ، والسحلة ، والخرم ، والتربانة ، وفصائل متعددة من سمك الشعور .

ويباع السمك في الوجه بالربطة لا بالوزن ، وهو رخيص جدا ، ويصدر أكثره بالثلاجات المتنقلة الى العلا وجدة والمدينة المنورة وغيرها . أما جراد البحر فيصدر الى أوروبا .

▲ قلعة «الزريب» الأثرية وتبعد حوالي تسعة كيلومترات شرقي مدينة الوجه ، وقد كانت فيما مضى تستعمل كمحطة للمحمل وهو في طريقه الى مكة المكرمة أثناء موسم الحج .

▼ يغلب على مداخل البيوت القديمة في مدينة الوجه ، الطراز القنطري ، ويبدو هنا الجزء العلوي لأحدها .

يشربون من ماء البحر

ان أشد ما كانت تعانيه مدينة الوجه هو قلة المياه ، وخاصة في أشهر الجفاف ، فقد كان ينقل لها الماء الصالح للشرب من بئر « أبا القزاز » التي تبعد نحو ٧٥ كيلومترا الى الشمال الشرقي من الوجه . كما كانت الوجه تعتمد على صهاريج قديمة تجمع فيها مياه الأمطار . وكانت هذه الصهاريج تبنى بالحجارة الكلسية وتكسى من الداخل والخارج « بالجير » حتى لا يتسرب الماء منها . ويبلغ طول الصهريج ما بين ١٠ و ١٥ مترا ، وعرضه حوالي ثلاثة أمتار ، وعمقه حوالي عشرة أمتار ، وله سقف مقنطر ودرج جانبي ينزل عليه الانسان ويغرف الماء بدلو . وفي كل جدار نحو ستة مزاريب يسيل منها الماء الى داخل الصهريج .

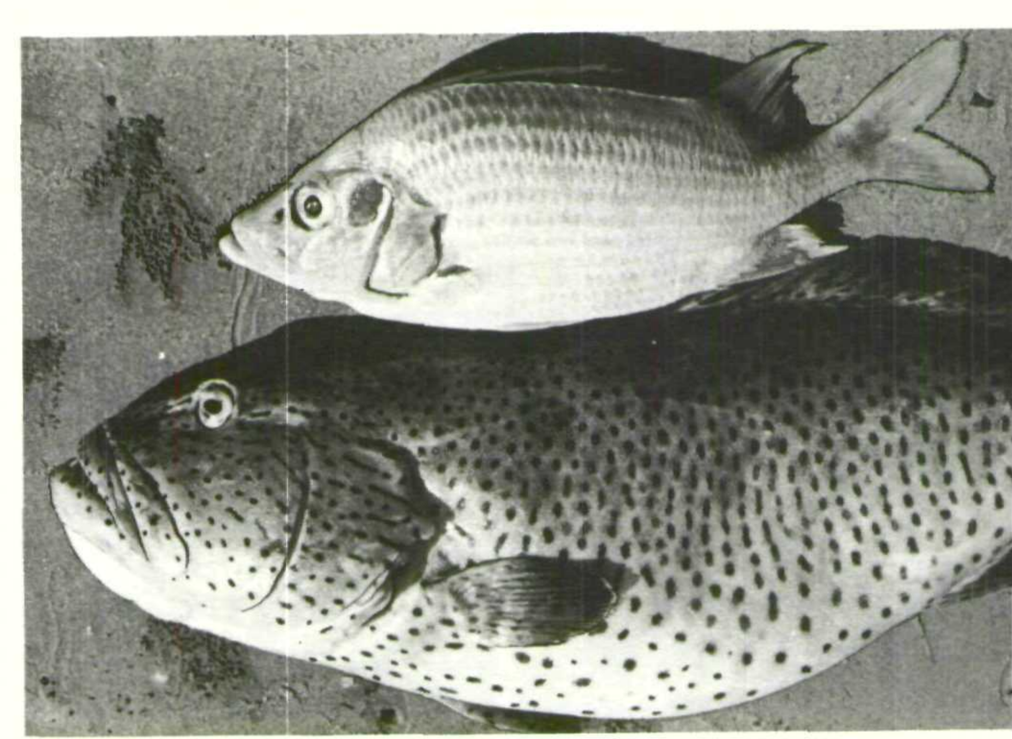
وقد بادرت الدولة بتوفير الماء والكهرباء لمدينة الوجه الجميلة ، ففي عام ١٣٨٨ تم انشاء محطة تحلية مياه البحر التي يبلغ انتاجها ٦١ ٠٠٠ غالون من الماء العذب يوميا ، ومدت شبكة من الأنابيب لايصال الماء الى البيوت .

اقبال شديد على التعليم

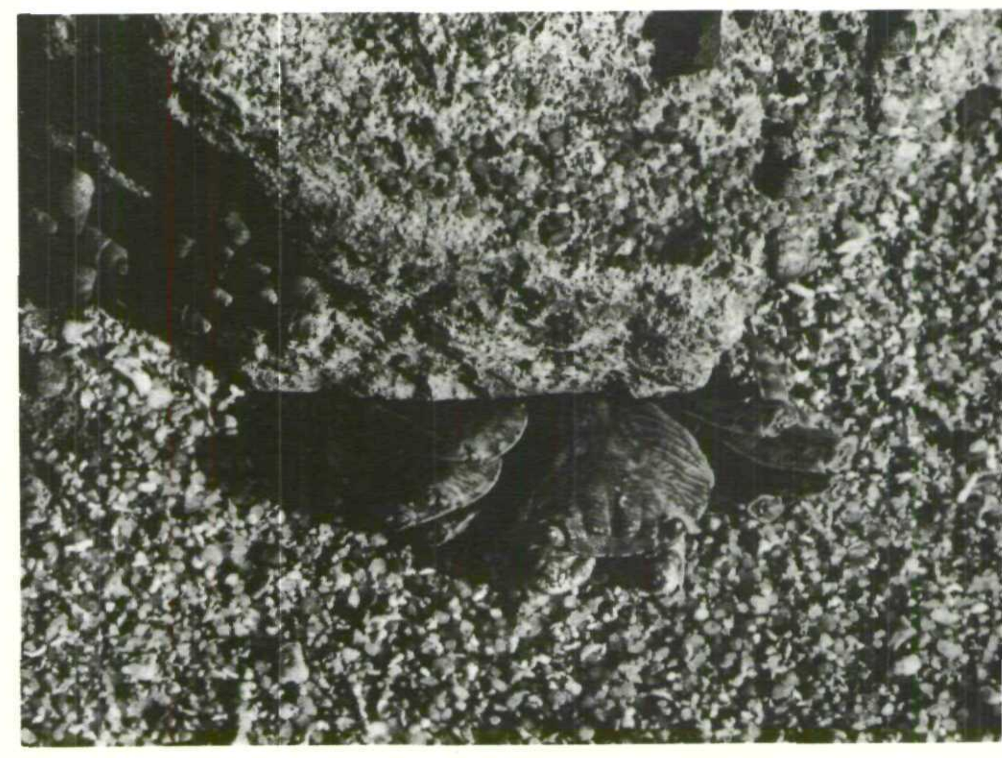
تأسست أول مدرسة ابتدائية في الوجه عام ١٣٣٠هـ . وشيدت في عام ١٣٨١ مدرستان على الطراز الحديث ، احداهما ابتدائية والأخرى متوسطة . ويستطيع المرء أن يلمس بوضوح تطور وعي البدو تجاه التعليم عندما يعلم أن أكثرهم يفضل السكنى في ضواحي الوجه ليتمكن ابناؤهم من الالتحاق بالمدارس . وبالوجه أيضا مدرسة ابتدائية للبنات ، تأسست في عام ١٣٨٢ . وتزمع رئاسة مدارس البنات انشاء مدرسة حديثة للبنات .

الخدمات الصحية

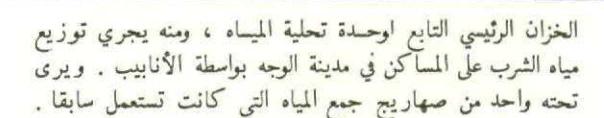
كان بالوجه قديما محجر صحي يقدم خدماته للحجاج الذين يمرون بالوجه ، ثم حول الى مستوصف عام ١٣٥٦هـ بعد أن توقف الحجاج عن المرور بالوجه . وفي عام ١٣٨٩هـ شيد في مكان مرتفع يطل على البحر الأحمر مستشفى ضخم مكون من ثلاثة أجنحة ويضم أكثر من خمس عيادات مختلفة ، بالاضافة الى مختبر ، وغرفة للأشعة ، وغرفة للجراحة .



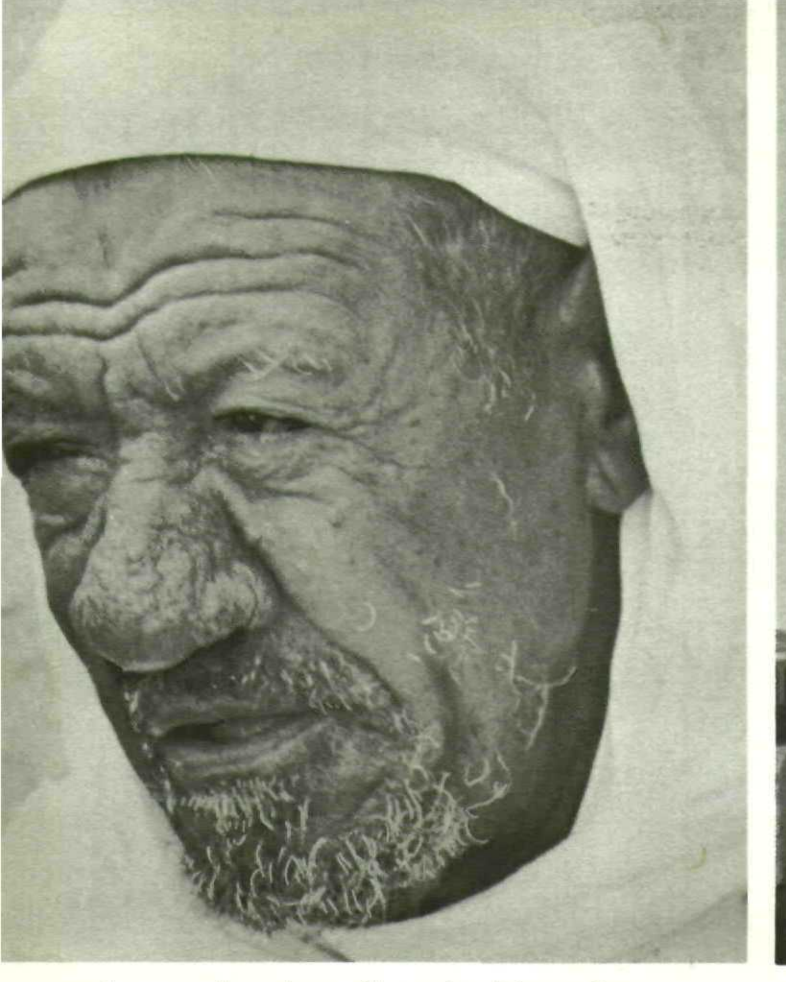
الوجه مدينة غنية بالأسماك .. ويبدو هنا نوعان من أنواع السمك المتوفر فيها .



« السرطان – Crab » من حيوانات البحر التي تكثر على شواطىء مدينة الوجه ، ويبدو هنا وهو يشق طريقه بين الحصى والأصداف أثناء خروجه من جحره على الشاطىء .



الخزان الرئيسي التابع لوحدة تحلية المياه ، ومنه يجري توزيع مياه الشرب على المساكن في مدينة الوجه بواسطة الأنابيب . ويرى تحته واحد من صهاريج جمع المياه التي كانت تستعمل سابقا .



وجه من الوجه : الحاج قاسم عبد الله . ويبلغ من العمر ٩٥ سنة .

المواصلات

تعتبر الوجه ثالث ميناء على البحر الأحمر بعد جدة وينبع ، وقد كانت البواخر والسفن الشراعية ترسو في خليجها . وكانت بواخر الشركة الخديوية تقوم برحلات منتظمة من السويس الى جدة ، ومنها الى الوجه . وبالرغم أن رصيف الميناء الحالي لا يسمح برسو البواخر الكبيرة الا أنه عندما بديء في انشاء مبنى المطار رست عليه باخرة ضخمة محملة بالاسمنت . وهناك الآن مشروع قيد الدرس لبناء رصيف بحري ، وتعميق ممر البواخر . وترتبط الوجه بمدن المملكة جوا ، اذ تقوم طائرات الخطوط السعودية برحلات منتظمة الى الوجه كل يوم تقريبا .

وتفتقر الوجه الى طريق معبد يربطها بالمدن القريبة منها ، الا أنه تم أخيرا مسح وتخطيط طريق ساحلية تبدأ من ينبع وتمر بالوجه وتتجه شمالا ، ومن المتوقع أن تباشر وزارة المواصلات قريبا سفلتة هذه الطريق التي ستجني منها الوجه نفعا عظيما . وجدير بالذكر أن من أهم وسائل المواصلات والنقل في المدينة هي الدراجات النارية . فلا يكاد بيت في الوجه يخلو من واحدة منها . وكل شاب يتفنن بتزيين دراجته ، ويكتب على اللوحة الأمامية آية قرآنية أو حكمة أو مقطع أغنية غرامية .

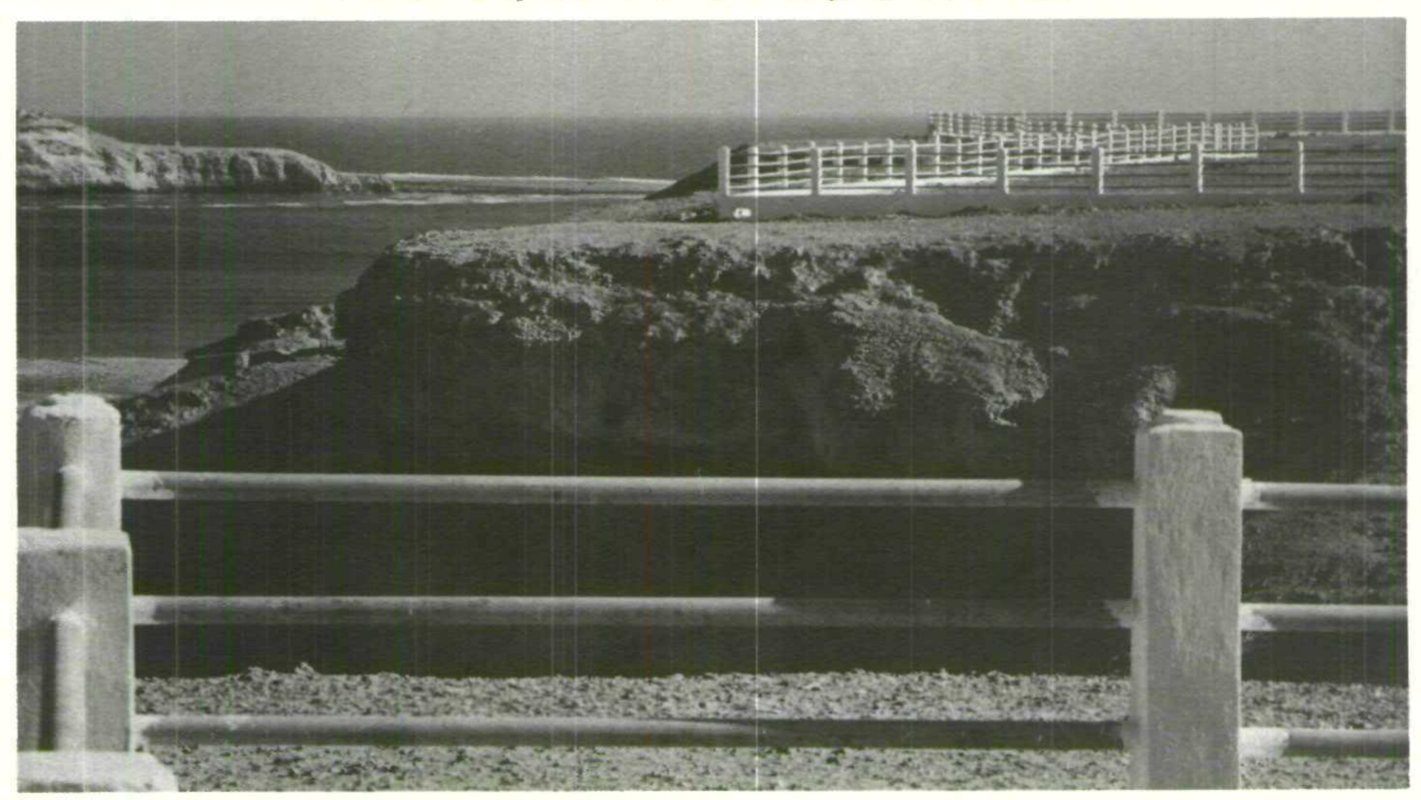
الزراعة

تعتمد الزراعة في الوجه عامة على الأمطار . ففي بطون الأودية يزرع الأهالي البطيخ والشمام والدخن . وفي « الهجر » ، التي سبق ذكرها ، حيث تتوفر الآبار الارتوازية ، تزرع الخضار وأشجار الليمون والرمان . وتمتاز الأراضي ، ولا سيما في بطون الأودية ، بخصبها ، فهي رملية متماسكة تميل الى الحمرة ، ولا ينقصها الا الماء لتنبت كل ما يمكن انباته .

وتنمو في الجبال وفي الأودية أشجار برية كبيرة منها : السمر ، والطلح ، والدوم ، والأراك ، والحرجل ، والعرن ، والنبق ، والحرمل ، والسيّال ، والضرم ، والعشار ، والشراة ، والعوسج ، والخروع ، والضرمة . كذلك تنمو شجيرات صغيرة ، تتخذ من بعضها الأدوية ، ومنها : النعناع البري ، والجعدة ، والشيح ، والبعيثران ، والسنمكي ، واللصيق ، والنيتول ، والشكاعة ، والبروق ، والسنا ، والسيكران . وتنبت عقب نزول الأمطار والسيول أعشاب برية كبيرة منها : الرطريط ، والقطباء ، والحوذان ، والقبا ، والربّل ، والحوة ، والعتير ، والحميض ، والخبيزة ، وركبة العجوز . وتكثر الطيور في الجبال والأودية كالحمام البري (القمري) ، والحجل ، والرهيدن ، والزرزور ، والهدهد ، والغراب . كما تكثر الأرانب ، والغزلان ، والوعول ، والثعالب ، والقنافذ ، والنيص ، والظرمبول . ويحظر القنص والصيد في المنطقة حاليا .

يستعمل الصيادون في الوجه الشباك لصيد السمك .

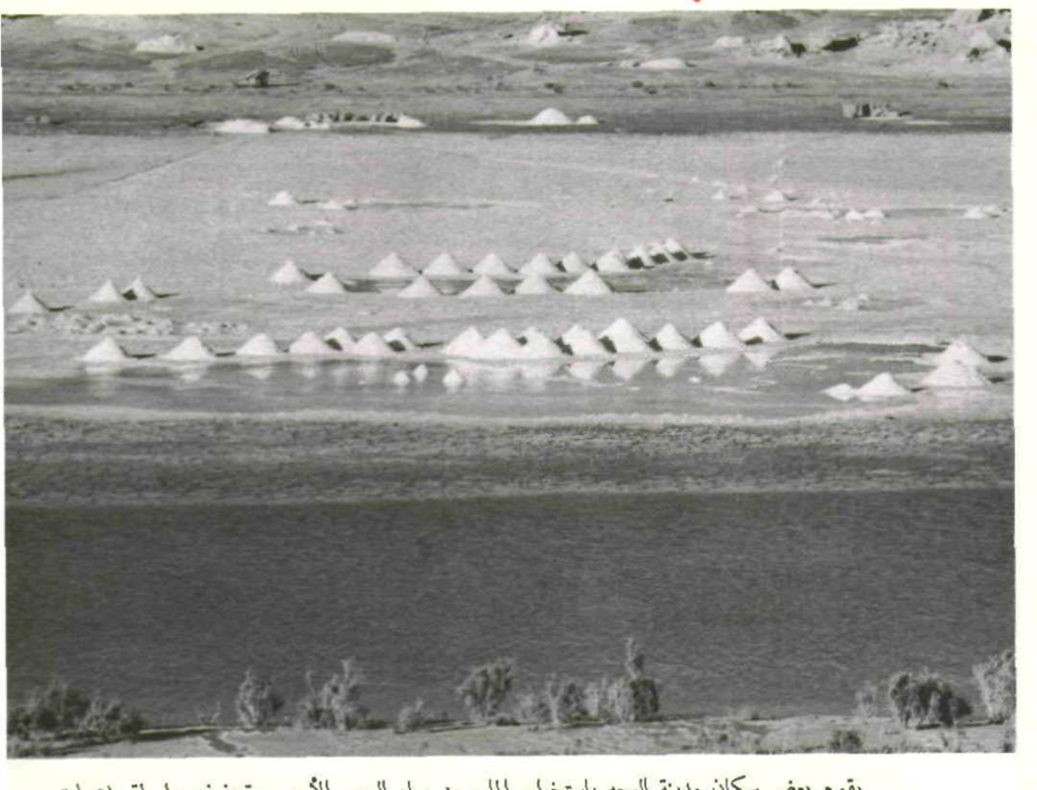
حواجز أقامتها بلدية الوجه على طول الساحل لحماية الأطفال والمسنين من السقوط فيها .



الآثار التاريخية

تزهو الوجه بكثرة آثارها التي خلفها العثمانيون في المنطقة ، لا سيما وان الوجه تتمتع بموقع استراتيجي مهم منذ القدم . ففي وسط المدينة وعلى مرتفع من الربوة ، تقوم قلعة « الوجه » الحصينة ، وهي مبنية من حجر أحمر صواني ، وبها برج شاهق يشرف على البحر .

وتقوم على الطرف الجنوبي الغربي من الخليج منارة لهداية السفن ، لا تزال بقاياها قائمة الى الآن . أما أشهر الآثار التي لا تزال تشهد بعظمة الوجه فهي قلعة « زريب » الواقعة على بعد تسعة كيلومترات شرقي الوجه ، وهي قلعة مربعة طولها ٦٠ مترا مبنية في سفح جبل الحميرة بحجارة الدومر الحمراء المقصبة . وللقلعة أربعة أبراج ، في كل منها ثلاث فتحات . وفي الجهة الشمالية ثلاث برك كبيرة ، وحولها عدد من الآبار ، أشهرها « المقرونة » التي يستقي منها البدو ، وبئر « زريب » ، وبئر « هداج » .



يقوم بعض سكان مدينة الوجه باستخراج الملح من مياه البحر الأحمر وتجفيفه بواسطة ملاحات .

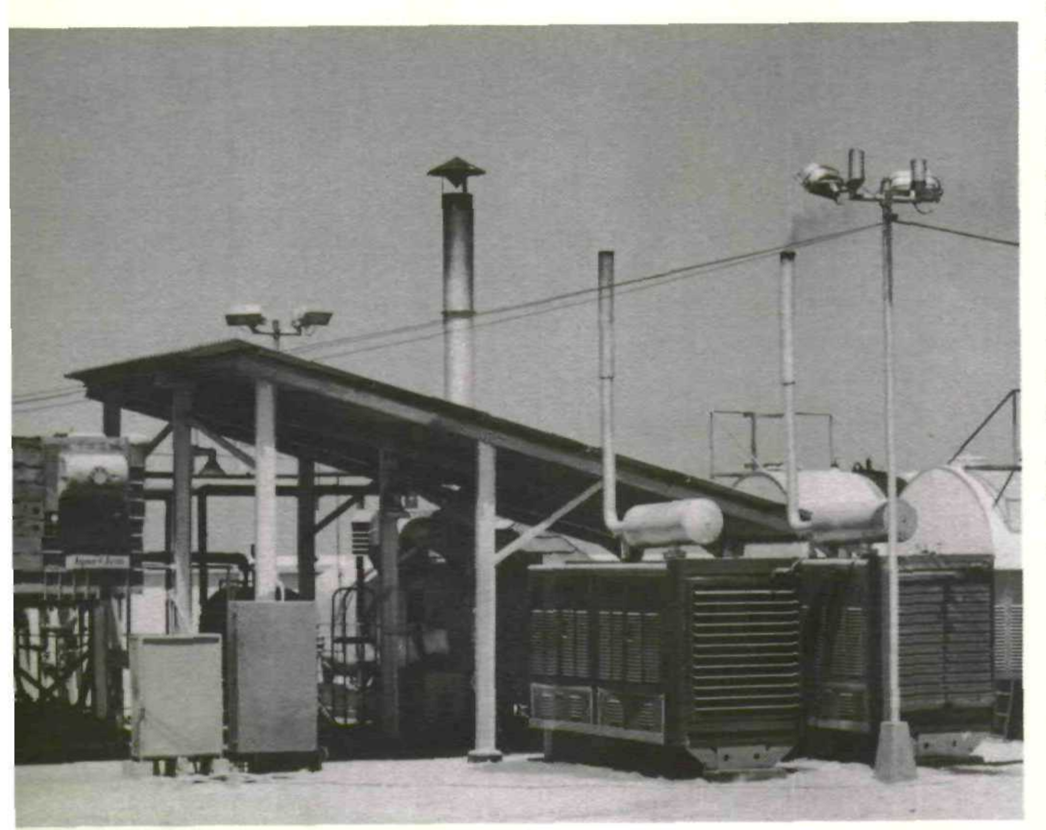
النشاط الرياضي والاجتماعي والأدبي

ميزة ينفرد بها الوجهي وهي نشاطه الرياضي والاجتماعي ، بغض النظر عن السن والمركز . فأمير الوجه وقد ناهز السبعين لا يتوانى عن رياضته المحببه اليه ، وهي المشي مع الفجر مسافة أربعة كيلومترات على الأقل ، ولهذا تراه يتمتع بحيوية يحسده عليها الشباب . والهواية المحببة لدى أهالي الوجه هي صيد السمك . فيذهبون مساء الى الشواطيء الجميلة ، ويقضون أمتع الأوقات هناك في الصيد وقلي السمك في العراء .

وفي الوجه عدة أندية أهمها : نادي الربيع الذي تأسس عام ١٣٨١هـ ، وهو ناد رياضي ثقافي اجتماعي . وهذا النادي ينظم الحفلات الغنائية والموسيقية ، والندوات الأدبية ، كما يشترك فريقه في مباريات كرة القدم مع المدن المجاورة . ويحتفظ فيه بملف لكل مشترك ، يذكر فيه نشاطه الرياضي والاجتماعي وهواياته . ويصدر النادي مجلة شهرية اسمها « مجلة الربيع » تعالج فيها أقلام النادي موضوعات حيوية تهم مدينتهم وأهاليها .

ان مدينة الوجه تبشر بمستقبل زاهر ، خاصة وأن هناك مشاريع حيوية سترفع من قدرها ومكانتها كمشروع شارع الكورنيش ، وتشجير الشوارع ، وبناء الحدائق العامة ، وغير ذلك ■

تصوير : خليل أبو النصر سليمان نصر الله



جانب من معمل تحلية المياه في مدينة الوجه ، وتبلغ طاقته حوالي ٦١٠٠٠ غالون يومياً

الخوف

عدو الإنسان الأكبر!

الخوف ظاهرة طبيعية لدى الانسان ، بدليل أن علماء النفس يضعونه على رأس قائمة الانفعالات الأصلية التي نلمسها لدى المولود الصغير . ونحن لا ننكر أن الحاجة الى الأمن قد عملت على ظهور الكثير من المخاوف لدى الانسان ، ولكننا نميل الى الظن بأن جانبا غير قليل من جهود الانسان المعاصر قد أصبح يستهدف القضاء على الكثير من مصادر الخوف في حياة الموجود البشري . صحيح أن بعض علماء النفس الأقدمين كانوا يتحدثون عن « غريزة خوف » ولكن علم النفس الحديث قد أثبت أنه ليس هناك « غرائز » ، بل هناك ميول فطرية أو « حاجات أصلية » ، تقبل التعديل والتحويل والابدال والاعلاء ... الخ . فليس ثمة غريزة محددة ، جامدة ، متصلبة ، يمكن أن نطلق عليها اسم « غريزة الخوف » ، بل هناك « وظيفة نفسية » يضطلع بها الخوف في حياة الموجود البشري ، وتلك هي حماية الذات الفردية ضد أخطار العالم الخارجي ، وضد كل ما قد يكون من شأنه أن يتهدد سلامة الانسان . ومعنى هذا أن الخوف « انفعال طبيعي » يقوم بدور حيوي هام في صميم الحياة النفسية للكائن البشري . ولو قال لنا أحد انه لا يخاف شيئا ، ولا يرهب أحدا ، لكان هذا الشخص ضحية لأخطر نوع من أنواع الخوف : الا وهو الخوف من مجابهة الواقع ، ومواجهة الحقيقة !

والحق أن التجربة تشهد بأن الطفل يخاف ، والرجل البدائي يكاد يقضي معظم حياته في مخاوف مستمرة . ولكننا قد نتوهم أن الرجل الناضج البالغ لا يخاف ، وكأن من شأن النضج العقلي أن يقضي تماما على كل أسباب الخوف في النفس البشرية . ولكن الواقع يشهد — على العكس من ذلك — بأننا جميعنا نخاف : فنحن نخاف الموت ، ونخشى المستقبل ، ونرهب الحياة ، ونجزع من الشيخوخة ، حتى لقد زعم بعض الباحثين أن حياة الموجود البشري تكاد تمثل سلسلة متصلة الحلقات من المخاوف المستمرة ! وليس من شك عندنا في أن الخوف قطب هام من أقطاب الحياة الانسانية ، ولكنه قطب « سلبي » ينبغي أن يقابله ذلك القطب « الايجابي » الهام الذي اعتاد علماء النفس أن يطلقوا عليه اسم « الشعور بالأمن Security » . ولو قدر لأي موجود بشري أن يعدم تماما كل احساس بالأمن أو الطمأنينة ، لكانت حياته نهبا للمخاوف أو المخاطر ، ومثل هذه الحياة انما هي الموت قبل الموت ! ولم يقل علماء النفس بضرورة بقاء الأم الى جوار ابنها ، خلال سنوات الطفولة المبكرة ، الا لأنهم قد لاحظوا أن في ابتعادها عن طفلها تهديدا خطيرا لشعوره بالأمن . والواقع أن الطفل في حاجة ماسة الى « الشعور بالأمن » ، لأن هذا الشعور هو السياج الضروري الذي ينبغي أن تحاط به حياته النفسية ، خصوصا في السنوات الخمس الأولى من عمره ، بل ان الانسان البالغ نفسه لهو في حاجة أيضا الى مثل هذا الشعور ، لأنه هيهات لانسان تستبد به المخاوف ، أن يكون كائنا متكاملا متوازنا ، يمكن الركون اليه ، أو الاعتماد عليه ..

ولكن ، لا بد لنا — بادىء ذي بدء — من التفرقة بين نوعين من المخاوف : « مخاوف سوية — Normal » ، نلاحظها لدى العاديين من الناس ، كالخوف من المجهول ، والخوف من المستقبل ، والخوف من الخطر ، والخوف

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

من المرض ... الخ ، و « مخاوف مرضية — Morbid » لا نلاحظها الا لدى الشواذ أو المنحرفين أو العصابيين من الناس : كالخوف من الغرباء ، والخوف من النساء ، والخوف من المجتمع ، والخوف من العمل ، والخوف من المسئولية ... الخ . وقد يكون من الطبيعي للجنس الواحد أن يتردد قبل الاقدام على الاختلاط بالجنس الآخر ، ولكن هذا التردد قد يستحيل الى خوف مرضي حينما يصبح الشاب (مثلا) عاجزا تماما عن تحقيق أي ضرب من ضروب الاتصال بعروسه. وليس هناك أدنى غرابة في أن يخشى المرء المرض ، وأن يحاول الابتعاد بنفسه عن مواطن العدوى ، ولكن الغرابة في أن يغسل شخص يديه بعد كل مقابلة يصافح فيها شخصا آخر ! وفي مثل هذه الحالة يستحيل الخوف من المرض الى مرض نفساني قد يصحّ أن نسميه باسم « مرض النظافة » ! وليس من الغرابة في شيء أن يتردد المرء قبل الاقدام على تنفيذ أي عمل كبير وخطير ، ولكن الغرابة أن يستمر التردد فيشل ارادته تماما ، وعندئذ لا يلبث الحذر أن يستحيل عنده الى خوف دائم من المسؤولية ، وعجز تام عن العمل ! وهكذا ترى ان « المخاوف المرضية » هي في معظم الأحوال أعراض تصاحب العديد من الأمراض النفسية : لأنها أعراض غريبة تولدها مؤثرات وهمية ، أو منبهات غير واقعية . فالطفل الذي اعتاد في صباه الخوف من الظلام ، أو الذي نشأ في بيئة تقوم التربية فيها على التخويف ، أو الذي تكوّنت شخصيته في كنف نظام تربوي صارم ، نقول ان مثل هذا الطفل قد يكون معرّضا — أكثر من غيره — للوقوع تحت طائلة المرض النفساني . وليس من شك في أن الخوف حليف « القلق » ، فان الطفل الذي نشأ على الخوف لا يمكن أن يكون طفلا آمنا ، وبالتالي فانه سرعان ما يقع ضحية لشتى ضروب القلق . وحين يعرف الطفل أن الصراحة قد تكلفه الكثير ، فان خوفه من الكبار ، وحرصه على تجنب العقاب ، قد يؤديان به الى الكذب . ومن هنا فقد يكون من الحديث المعاد أن نقول أن الخوف أيضا حليف الكذب والخداع والتضليل ... الخ ، ذلك لأن الطفل الخائف — كما نعلم — لا بد من أن يجد نفسه مضطرا الى اصطناع أساليب المخادعة ، والمداورة ، والتحايل . وربما كان أخطر نظام تربوي يمكن أن ينشأ في أحضانه جيل من الأجيال ، هو ذلك النظام الارهابي الذي يعتاد فيه الأطفال أساليب العنف ، فلا يجدون بدا من الاستجابة لها بشتى مظاهر الخوف ، وعندئذ تنعدم الثقة بين الصغار والكبار ، ويفقد الطفل كل احساس بالأمن ، وتستحيل الحياة الاجتماعية الى جوّ ارهابي من التوجس والتخوّف !

ولو أننا انتقلنا الآن الى الأنظمة الاجتماعية ، لوجدنا أن النظام الاجتماعي السليم لا يمكن أن يقوم على دعامة من العسر والارهاب والتخويف ، أو الضغط . صحيح أن المجتمعات قد تحتاج في بعض مراحل تطورها الى أنظمة صارمة ، تقرن الحزم بالشدة ، ولكن من المؤكد أن الشدة .. وحدها لا يمكن أن تحقق لأي مجتمع ما يصبو اليه من استقرار ، وهدوء ، وترقّ ، ونموّ مطرد ..

فان الاحساس بالأمن هو الشرط الضروري لقيام المجتمع السليم . وهذا ما يدفعنا الى القول بأن صمام الأمن في أي جهاز اجتماعي انما هو هذا الشعور بالطمأنينة أو الأمن ، لأنه لو انعدم هذا الشعور من نفوس الأفراد ، لانهار الكيان الاجتماعي بأسره ، وبالتالي لأصبحت الحياة الاجتماعية نفسها أثرا بعد عين !

على أننا لو أنعمنا النظر الى عالمنا المعاصر ، لأدركنا أنه لم يعد يقتصر في تربيته للأجيال الصاعدة على بث روح الأمن والطمأنينه في نفوسهم ، بل هو قد أصبح يحرص أيضا على تزويدهم بروح المغامرة والمخاطرة . وليست هذه الأعداد المتزايدة من روّاد الفضاء سوى نموذج واحد — بين نماذج أخرى عديدة — لهذا الجيل المخاطر الذي أخذت بوادره تظهر في الآفاق . والحق أن الشباب المعاصر قد أخذ يدرك أن « الخوف » هو العدو الأكبر للانسان ، ومن ثم فقد راح يحطم كل قيود الخوف ، ويعمل جاهدا في سبيل التحرر من كل أسباب الجبن أو التهيّب أو التوجّس ! وهكذا أصبح الشباب المعاصر على استعداد للقيام بأية مخاطرة في سبيل ارتياد عالم الفضاء والوصول الى الكواكب النائية ، والعمل على اكتشاف تلك العوالم المجهولة ! ولم يتردد شباب العالم الحديث في مكافحة المجاعة ، والفقر ، والخوف ، ايمانا منهم بأن الخوف لا يصنع الرجال !

وليس من شك في أن كل جهد تبذله البشرية اليوم في سبيل مقاومة عدوّها الأكبر (الخوف) انما هو خطوة كبيرة يخطوها الانسان المعاصر على درب الحرية . وحين يتسنى للبشرية أن تحرر أبناءها من الخوف ، وأن تعمل على محو أسباب المخاوف ، فهنالك يكون انسان القرن العشرين قد حقق أكبر كسب حضاري في تاريخ الانسانية كلها .. ■

معركة عين جالوت *

من المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي

بقلم الاستاذ عبد الحافظ كمال

كان المغول من بين قبائل التتر والتركمان التي عاشت حياة بداوة في أواسط آسيا وسهوبها، وكانوا يعتمدون في حياتهم على تدجين الحيوانات وتربية الخيول ، فيأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها . وبالاضافة الى ذلك كانوا يعيشون على صيد الحيوانات البرية في سهوب آسيا . غير أن شظف الحياة والغزوات القبلية جعلتهم شديدي المراس وأكسبتهم الجلد والصبر على مجابهة المصاعب والمشقات . ولولا ظهور « جنكيزخان » بينهم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، أي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، وتوحيده لهم ، لما ورد ذكرهم في التاريخ . ويمكن القول بأن « جنكيزخان » كان لـه الفضل الحاسم في صهر القبائل المتنازعة ، فقد ضم جميع قبائل المغول والتتر وبعض التركمان في وحدة عسكرية قوية متراصة جعلتهم من أقوى الجيوش واعتاها في ذلك الوقت . وقد فتح قسما من الصين وجميع آسيا الوسطى ، ووصلت جيوشه بحر قزوين ومملكة « خوارزمشاه » ، التي كانت تعدّ الدولة الشرقية الحامية للامبراطورية الاسلامية في بغداد . وسرعان ما سقطت مملكة « خوارزمشاه » ، فدمر المغول مدنها وقراها وقتلوا سكانها . ويقال بأن « جنكيزخان » عندما دخل بخارى صعد درجات الجامع الرئيسي ، وصرخ في جنوده قائلا : « لقد قطع الحشيش فأطعموا خيولكم » ، وكانت هذه اشارة لجيشه بالنهب والسلب ، وحرق بخارى وتدميرها والقضاء على حركتها العلمية والثقافية ، فقد كانت من أعظم مراكز العلم والعرفان . ومع أن « سمرقند » و « بلخ » قد استسلمتا ، الا انهما لم يسلما من أعمال النهب والسلب والقتل . ثم وصلت طلائع جيشه الى خراسان ، فاستولت على مدينة « مرو » الشهيرة ، وبطشت بسكانها وحرقتها ونهبت أموالها . وعندما تقدم الجيش المغولي الى مدينة « نيسابور » واجهته مقاومة شديدة على الأسوار وفي الشوارع دامت أربعة أيام ، الى أن استحالت المقاومة ، فاختار المغول أربعمائة من صناعها أرسلوهم الى منغوليا ، وأما بقية السكان من رجال ونساء وأطفال فقد أبادوهم عن بكرة أبيهم . ونجت « هيرات » من هذا المصير عندما فتحت أبوابها للجيش المغولي . ثم دخل الجيش المغولي بعد ذلك بلاد السند وغزا مقاطعاتها الثلاث وخربها ولكنه سرعان ما انسحب منها عندما علم بأن أهل « هيرات » ثاروا على حاكمهم المغولي ، فحاصرها ستة أشهر دافع أهلها عنها طوال هذه المدة دفاع الأبطال ، غير أنهم غلبوا على أمرهم ، فما كان من المغول الا أن اعملوا السيف في أهلها مدة أسبوع كامل ، قتلوا فيه خلقا كثيرا . ثم توجه بعد ذلك الى اذربيجان وفتحها ، وقد حاول أمراء الروس في « كييف » صد غزو المغول ، ولكنهم فشلوا ولم يقووا على مواجهتهم . وهنا وجه « جنكيزخان » جيوشه مرة ثانية الى الصين ، وفتح قسما كبيرا من شمالها . ولما توجهت جيوشه لمحاربة القسم الجنوبي من الصين بدت ظاهرة غريبة في السماء ، وهي اجتماع خمسة كواكب في برج واحد ، ففسرها بأنها اشارة تنم عن سوء الطالع وترك غزواته في الصين ، وكرّ راجعا الى بلاده منغوليا ، حيث لم يلبث ان مات سنة ٦٢٦هـ ، (١٢٢٧م) .

خلف « جنكيزخان » بعد وفاتـه ابنه « أكوتاي » حسب وصيته ، فتوجه هذا الى الصين ، حيث غزا قسما كبيرا منها . ثم توجه الجيش المغولي الى الغرب ، فوصل ديار بكر ، والجزيرة الفراتية ، واربل ، وجورجيا ، وأرمينيا الكبرى ، وروسيا ، ففتح قسما منها ، بما فيها مدينة « موسكو » التي لم تكن مهمة في ذلك الوقت ، ثم واصل زحفه الى « كييف » التي كانت تسمى « بأم المدن » لازدهارها ، فذبح سكانها وهدمها . ومن هناك توجه الجيش المغولي الى « هنغاريا » ، فأباد جيشها في هجوم ليلي ، وكذلك أخضع « بودابست » ، وقطع نهر « الدانوب » وهو متجمد . ثم توجه الى « بولندة » ، حيث بلغ أفراده نبأ موت الامبراطور « أكوتاي » . وقام النزاع بين أمراء المغول ، حتى انتهى بانتخاب « منكو » امبراطورا عليهم .

ولما علم « منكو » بأن الاسماعيليين المقيمين في قلاعهم الحصينة في ايران كانوا يتعرضون لقوافل التجارة المغولية ولجيش المغول أرسل أخاه « هولاكو » عليهم لاخضاعهم ، فوقعت تلك القلاع بأيدي المغول بعد عناء ومشقة ، ثم أكمل « هولاكو » طريقه غربا نحو الامبراطوريـة العباسية في بغداد .

هكذا خرج المغول من صحراء « غوبي » في أواسط آسيا كالبحر الهائج لا يقوى على صدهم أحد ، فاجتاحوا نصف العالم المعروف ، وأنزلوا الرعب والهلع في النصف الآخر منه لأجيال عديدة ، فامتدت فتوحاتهم من « كوريا » في شرقي آسيا ، حتى بولندة في وسط أوروبا ، ومن نهر « الفلجا » في روسيا شمالا ، حتى نهر السند جنوبا . ثم اكتسح المغول بقيادة هولاكو العراق ، ودمروا بغداد ، وحرقوا دور العلم وخزائن المعرفة فيها ، وأخضعوا سوريا لحكمهم ، ووصلت طلائع جيوشهم الى مدينة غزة ، وطمعوا في مصر والشمال الافريقي ، فبعث هولاكو برسله الى سلطان مصر يهدده ، ويطلب منه التسليم والاذعان .

كان هذا في الوقت الذي كانت فيه سوريا وفلسطين تعانيان من الحملات الصليبية المتكررة ، فقبل معركة « عين جالوت » بعشر سنين كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة « لويس التاسع » ، ملك فرنسا ، قد نزلت في دمياط في دلتا مصر ، وسارت نحو القاهرة ، وفي تلك الأثناء مات « نجم الدين أيوب » ، آخر ملوك الأيوبيين في مصر ، فتسلمت زمام الأمر من بعده زوجته

* وقعت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٨٥ هـ الموافق ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م

المشهورة شجرة الدر ، التي أخفت على الشعب نبأ موته ، وحكمت البلاد باسمه في أحلك الساعات ، اذ كانت معركة « فارسكور » قد بدأت ، وكان يقود الجيش الاسلامي حينذاك القائد « بيبرس » الذي أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة ، وأسر « لويس التاسع » وحبسه في دار لقمان الى أن افتدى نفسه ورؤساء جيشه بالمال الكثير . ثم تولى الأمر « عز الدين ايبك الصالحي » أول أمراء المماليك ، ولكنه قتل ، فتولى الحكم من بعده « قطز » وذلك في عام (٦٥٧هـ – ١٢٥٩م) .

كان « قطز » تركمانيا هرب به أهله أمام جحافل المغول وبيع مملوكا وهو صغير في دمشق ، ثم أخذوه الى القاهرة ، وارتقى في الجيش حتى جعله « ايبك الصالحي » من خواصه . ومع أن « قطز » كان تركمانيا لا يحسن العربية ، الا انه كان مسلما مؤمنا واثقا بالله ، فاجتمع اليه القادة والمحاربون المسلمون على مختلف جنسياتهم ولغاتهم ، ولم يكن فيهم من لم يرزأ بأحد أفراد عائلته أو بها كلها ، فكاد ان يصل بهم الأمر الى اليأس والقنوط ، غير أن « قطز » أعاد اليهم الثقة بالله ، وأعانهم بالمال والسلاح ، وجمع بينهم ووحد قلوبهم ، فانقلب يأسهم الى عزم ، وتفرقهم الى وحدة .

وفي أواخر شعبان ٦٥٨هـ كان « قطز » يعد العدة لمواجهة أسوأ الأمور ، ويتوجس خيفة من تلك الأيام المظلمة الحالكة . غير أنه في تلك اللحظة بلغ هولاكو في دمشق ، وهو في أوج انتصاراته ، نبأ يخبره بوفاة أخيه الامبراطور المغولي « منكوخان » ، فأخفى هولاكو الأمر عمن حوله ، وعين « ايل سابان » نائبا للملك في دمشق ، كما عين قائده « كتبوغا » قائدا عاما لجيش المغول ، وقفل عائدا الى أواسط آسيا .

لقد صدق حدس « قطز » ، حينما دخل عليه حاجبه ذات صباح في أوائل رمضان عام ٦٥٨هـ يخبره بصوت متهدج بأن رسل المغول بالباب ، فدخل الوفد ، وهو يضم أربعين رجلا برئاسة قائد بشع الصورة ، شرس التقاطيع ، وقدم كتابا مغلفا في حرير جميل الى « قطز » من الحاكم هولاكو ، فتناوله قطز باحترام ، وفتحه بتؤدة وقرأه ، وكان فيه ما يلي :

« ان الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته ، ومنحنا ممالك الأرض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصى أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به وبلاده ورعاياه ، كما بلغ أسماع الجميع . أما حيث جيشنا الذي لا حصر له ، فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار ، فاذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا ، فارسل الينا الجزية ، واقدم بنفسك واطلب الشحنة ، والا فكن مستعدا للقتال » .

ويخبرنا المؤرخ « رشيد الدين فضل الله الهمذاني » في كتابه « جامع التواريخ » الذي وضعه بالفارسية معتمدا على المصادر الأصلية المغولية ، وقد ترجم جزء منه الى العربية ، بأن أكثر جيوش الشام ومصر كانت من بقايا جيش السلطان « خوارزم شاه » ، فتجمعت هذه الجيوش في مصر تحت قيادة « قطز » . وعندما وصلت رسل المغول ، أحضر « قطز » قادة هذه الجيوش ، وكذلك قائد جيشه « بيبرس » ، وعرض عليهم الأمر واستشارهم قائلا :

« لقد توجه هولاكو خان من توران (أي بلاد الأتراك في أواسط آسيا) الى ايران بجيش جرار ، ولم يكن لأحد من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء الى دمشق ، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي « كتبوغا » الذي هو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين ، واذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته . فيجب تدبر الأمور قبل فوات الفرصة » .

فقال ناصر الدين قيمري : « ان هولاكو خان فضلا عن انه حفيد جنكيز خان فان شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان ، وان البلاد الممتدة من تخوم الصين الى باب مصر كلها في قبضته الآن . فلو ذهبنا اليه لطلب الأمان



فليس في ذلك عيب أو عار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . انه ليس بالانسان الذي يطمأن اليه ، فهو لا يتورع عن قطع الرؤوس ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فانه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة بعد أن أعطاهم العهد والميثاق . فاذا ما سرنا اليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل » .

فقال قطز : « .. أضحت البلاد من بغداد حتى الروم (آسيا الصغرى) خرابا يبابا ، وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل . فلو اننا تقدمنا لقتالهم ، فسوف تخرب مصر خرابا تاما . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة واحدا من ثلاثة : الصلح ، أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرا الا المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

فأجاب ناصر الدين قيمري : « وليس هناك مصلحة أيضا في مصالحتهم ، اذ أنه لا يوثق بعهودهم » . أما بقية الأمراء فقد اختلفت آراؤهم . وأخيرا قالوا له جميعا « مر بما يقتضيه رأيك » . عندئذ أطرق قطز طويلا ، ثم رفع رأسه ، وقال :

« ان الرأي عندي أن نتوجه جميعنا الى القتال ، فاذا ظفرنا ، فهو المراد ، والا فلن نكون ملومين أمام الخالق والخلق » . فاتفق الأمراء وجميع الحاضرين على هذا القرار . ولما علم الجيش والشعب بهذا القرار أدركوا مدى التصميم الحاسم والعبء الجسيم الملقى على عاتقهم ازاء هــذه المعركة المصيرية .

فجمع قطز جيوش المسلمين وبدأت طلائعه تتحرك استطلاعا لجيش المغول ، وكان الأمير المغولي « بايدر » قائدا للجيش المغولي في غزة ، فأسرع بالكتابة الى « كتبوغا » — وكان بالقرب من بعلبك — يخبره بتحرك جيوش المسلمين . فأجابه كتبوغا قائلا « قف مكانك وانتظر » . غير أن بيبرس قائد طليعة الجيش الاسلامي داهم « بايدر » قبل وصول « كتبوغا » ، وطاردته بعض الوحدات الاسلامية حتى نهر العاصي .

فاستشاط « كتبوغا » غيظا وسار ، كما يقول المصدر المغولي ، و « كأنه بحر من اللهب لسبب الغيرة والغضب » وأقبل في منتهى السرعة معتمدا على قوته وسطوته وسمعة المغول الحربية في الشراسة وعدم الانكسار ، وقد تصور أمرا ، غير أن الله عز وجل قدّر سواه .

وكان للمسلمين عيون يقظة تراقب حركات جيش المغول وسكناته ، وتأتـــي بأخباره أولا بأول ، بواسطة الرسل أحيانا وبالحمام الزاجل أحيانا أخرى ، كما كان للمغول في الوقت نفسه جواسيس كثيرون بين المسلمين يكاتبون العدو ويراسلونه ، فكان الحذر شديدا من هؤلاء .

وصلت جيوش المسلمين الى « عين جالوت » ، وهي تقع بين « طبرية » و « نابلس » ، وقرب « بيسان » في غور الأردن ، وهناك نصبوا الخيام وأعلن قطز — تضليلا للجواسيس — انهم سيمكثون هناك بضعة أيام يستجمون خلالها ، ويريحون أنفسهم وخيولهم استعدادا لحرب ضروس لا يعرف عواقبها أحد الا الله سبحانه وتعالى . وكان الشهر رمضان عام ٦٥٨هـ ، والحر شديدا ، غير أن « قطز » و « بيبرس » قررا سرا ملاقاة العدو عند ذلك الوادي ، فخرجا يتفقدان الألوية في الظاهر ويدرسان طبيعة الأرض وتضاريسها وتلالها وأوديتها وتلاعها في الباطن . وفرقا الجيش على الأودية المختلفة بحجة أن ذلك يعطي مجالا أوسع لرعي الخيل والجمال وغيرها . وتدارس قطز وبيبرس الأمر مليا بعد منتصف الليل . وقررا اعداد كمائن عديدة لا كمينا واحدا ، وقد وصلت الأخبار بأن « كتبوغا » قادم كالسيل على بضعة أميال من الجيش الاسلامي . فقرر قطز أن يقود المقدمة لمصادمة المغول ، وأن يقود بيبرس القلب ، ثم يوعزان الى بقية الألوية بالاشتراك في القتال في وقت لاحق تخرج الكمائن فيه فجأة عند اشارة معينة ، فتلتحم في رحى المعركة المصيرية .

وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ قام المسلمون فجرا وملأوا الأودية والسهول والآكام بالتهليل والتكبير لصلاة الصبح ، وبعدها سار قطز بالمقدمة لمصادمة الأعداء ، فالتحم الجيشان ، وكان قطز — حسب قول المؤرخ رشيدالدين — قد عبأ الجيش في كمين وأعده خير اعداد . ثم ركب هو بنفسه وثبت مع نفر قليل من الجند ، وقابل كتبوغا مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس في «عين جالوت» ، فقذف المغول بسهامهم وحملوا على المسلمين ، فتراجع قطز وبدا أن جنوده لحقت بهم الهزيمة .

هنا تشجع المغول وتعقبوه ، وقتلوا كثيرا من المسلمين الذين استدرجوا المغول الى بقعة معينة ، فخرجت الكمائن من ثلاث جبهات ، وكان أن عملت أولا على ايقاف اندفاع الجيش المغولي ، ثم على صدمه ، ثم على تطويقه . وكان جيش المغول يقاتل قتال الواثق المتمرس المطمئن الى الغلبة الى ما بعد القيلولة . وقبيل العصر بدأ الوهن يظهر في الجيش المغولي ، فبدأت جموعه تتشتت ، ووحداته تتفرق حتى انه لم يبق من الجيش المغولي الا شرذمة التجأت الى غابة من القصب هناك ، فأمر قطز باشعال النار فيها فأتت على من فيها من المغول ، ومن خرج منها أدركته السيوف والأسنة

بيد أن « كتبوغا » ثبت وبقي يضرب يمينا وشمالا غيرة وحمية . وكان يكر على المسلمين ، فرغبه جماعة من أتباعه بالهرب ، غير أنه رفض ، وقال « لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان ، وسيصل رجل واحد ، صغيرا أو كبيرا ، من أفراد هذا الجيش الى حضرة الملك ، ويعرض عليه كلامي قائلا : ان كتبوغا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغاليه فـــي سبيل واجبه » .

ويزعم المصدر المغولي بأن « كتبوغا » : رغما عن أن جنوده تركوه وحده ، ظل يكافح الى أن كبا به جواده في نهاية الأمر فأسر وأسر معه ابنه ، ثم حمل مكبلا الى قطز ، فدار بينهما حوار أورده المؤرخ رشيد الدين ، نثبته هنا مع الاختصار :

قطز : أيها الرجل الناكث العهد ، ها أنت بعد أن سفكت كثيرا من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الباطلة وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة ، قد وقعت أخيرا في الشراك » .

كتبوغا : أيها الفخور المغتر ، لا تتباه كثيرا بيوم النصر هذا فانا اذا قتلت على يدك اعلم أن ذلك من الله لا منك ، فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، فانه حين يبلغ حضرة « هولاكو خان » نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من اذربيجان حتى ديار مصر ، وسيحمل المغول رمال مصر في مخالي خيولهم .

قطز : لا تفخر الى هذا الحد بفرسان « توران » فانهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع ، لا بالرجولة والشهامـــة ..

كتبوغا : بادر بالقضاء علي بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك .

فأمر قطز بقتله ، وطارد المسلمون فلول المغول ، وتشجع أهل دمشق فبادروا الى أسر من عندهم من المغول ، وبذلك كانت معركة « عين جالوت » نقطة تحول في تاريخ العرب والمسلمين مع المغول ■

تقوى القلوب

للشاعر أحمد ابراهيم الغزاوي

هو (البرهان) لا نرتاب فيه
به (الدنيا) تزخرف ، وهي (زئبق)

فكم تلقى من الأشباح شخصا
يروعك ، ما تهادى ، وهو أخرق

تباغت منه بالأخلاق تزري
وبالنزوات ، فاجعة ، تغسّق

وتخشى ما اتصلت به قليلا
بوادره ، وتحذر ما تدفّق

وآخر مترب ، بر ، تقي
ولكن شانه ثوب ممزّق

تجاذب روحه الأملاك تترى
الى ملأ به الحسنات تنفق

الى الفردوس ، وهي له خلود
عشية كل من في الأرض يزهق

تعالى ربنا جدا ، وماذا
نطيق ؟ ونحن بالطوفان نغرق

مظاهر قدرة الله تبدو
وتخفى وهي تجمع ، أو تفرق

وما للعقل فيها من ظهير
سوى التوفيق ، والايمان أعمق

وكم بين النبات قتاد شوك ؟
وأثمار ، وأزهار ، وزنبق ؟

وفي الملكوت من جن وأنس
وأفلاك ، وأصباح تفلق

ومن موسى وفرعون عتيّ
وذي بطش وطيش قد تمزق

وفي الشعراء بشّار ، وقيس
أخو ليلى وجرول ، والفرزدق

وكم في الناس من سود وبيض
وذي لب ومعتوه وأحمق

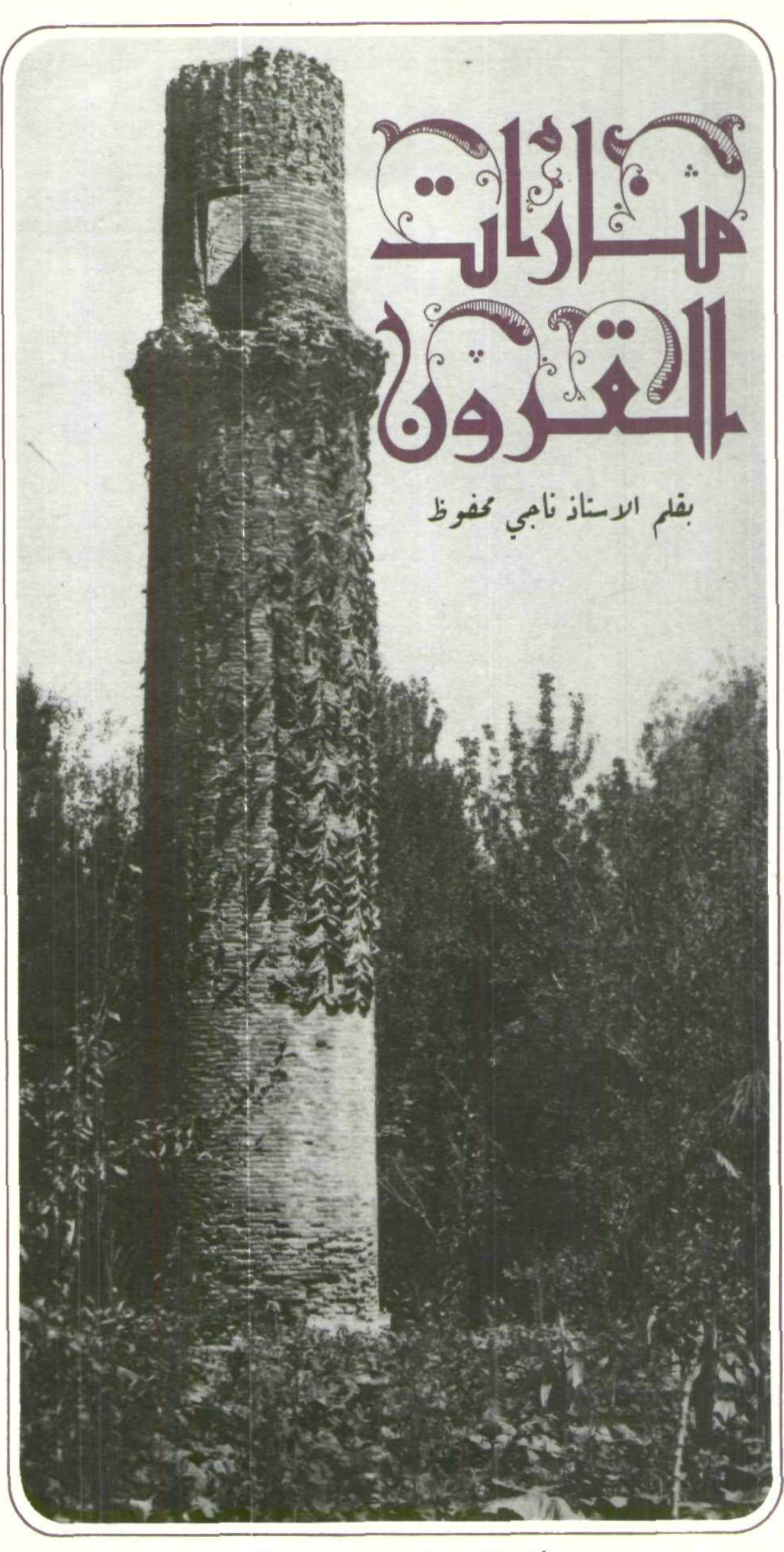
كذاك هو ابن آدم وهو يفنى
على كره ويبقى وهو مرهق

وما « تقوى القلوب » سوى التواصي
بما وصّى به الوحي المصدّق



منارات القرون

بقلم الاستاذ ناجي محفوظ



منارة « خوى » الأثرية الواقعة شمال غربي مدينة خوى التي تبعد عن العاصمة الايرانية طهران نحو ٧٧٧ كيلومترا، وهي مجللة معظمها بقرون غزلان مثبتة فيها .

المنارة ، في الأصل ، موضع النور . وتسمى الشمعة ذات السراج « بالمنارة » ، وهي لذلك ما يوضع فوقه السراج . والمئذنة هي كل ما ارتفع عن الأرض واستعمل كموضع لرفع الأذان . ثم أطلقت كلمة « منائر » على « المآذن » ، ربما لأنها تنير القلوب بهدى الايمان . واتخذت المآذن شكل المنائر في البناء ، وانتشرت في بقاع الأرض بانتشار الاسلام ، واختلفت أنماطها بين بلد وآخر . وكانت المنارات تبنى من الحجر أو الآجر أو الطين وهي المواد نفسها التي كان استعمالها سائدا في بناء العمران آنذاك .

ولكن المنارات — مع مرور الزمن — لم يقتصر بناؤها على الانارة أو رفع الأذان فقط ، وانما أخذت تستخدم كنصب تذكارية ترمز لمناسبات معينة . ومن هذه المنارات « منارات القرون » .

وأول مـــن بنى منارة من هذا النوع ، في الاسلام ، هو السلطان « ملكشاه » السلجوقي ، وقد بناها في العراق ، قرب « الرحبة » ، على طريق الحج من الكوفة . وكان هذا السلطان محبا للصيد وماهرا في استعمال أدواته وآلاته ، حتى قيل انه كان : « أرمى الناس ، فلم يخطىء قط ، وأطعن الناس برمح ... » . وقد زار بغداد في سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) ، وخرج هو وجنده للصيد في نواحي الكوفة ، فاصطادوا صيدا كثيرا بلغ الألوف ، فأمر ببناء منارة من قرون الغزلان ، بالسبيعي قرب الرحبة . فكأنه أراد بذلك اقامة ذكرى لحادثة الصيد تلك ، ويقول البعض : انه ربما اقتدى في ذلك بسابور بن أردشير ، الملك الفارسي ، الذي بنى في قرية « اسفجين » الواقعة في رستاق همذان ، « منارة الحوافر » ، وكان ارتفاعها خمسين ذراعا في استدارة ثلاثين ذراعا ، وهي مصمتة بالكلس والحجارة ، وقد ركبت حوافر الوحوش — التي اصطيدت لتخليص المزارع من أذاها — من حولها في شكل منتظم بعد أن سمرت بمسامير الحديد ، حتى كانت تبدو وكأنها منارة من حوافر .

وقد عاشت منارة القرون قرونا عدة يشاهدها الحجاج والرحالة ، ويصفونها في أحاديثهم عن أسفارهم ورحلاتهم . ولعل الرحالة العربي « ابن جبير » كان أكثر من أجاد وصفها ، فقد قال عنها ، وقد شاهدها ضحوة السابع والعشرين من شهر المحرم سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ، وهو في طريقه من الحجاز الى العراق بعد أن أتم حجه :

« .. نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف

بمنارة « القرون » ، وهي في بيداء من الأرض لا بناء حولها ، قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر ، وقد تداخل فيها من الخواتم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بديعة . ومن غريب أمرها انها مجللة كلها بقرون غزلان مثبتة فيها فتلوح كظهر الشيهم(١) .. »

وأما « صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي » ، الذي يبدو وانه سلك ذلك الطريق وشاهدها أيضا ، فيقول : « .. بين كل آجرتين قرن أو حافر » . ويروي ابن الجوزي انه كان فيها (٤٠٠٠) رأس . ولا نعرف متى انهارت هذه المنارة واندثرت آثارها ، الا انها كانت لا تزال قائمة حتى في أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، اذ يقول عنها « ابن ابي حجلة » في كتابه « سكردان السلطان » الذي ألفه سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) « أنها باقية الى الآن وتعرف بمنارة القرون » . ولكن الكثير من الناس كانوا يسمونها بـ « أم القرون » كما ذكر اليافعي .

ومن ناحية أخرى نجد ان ابن سعيد المغربي (المتوفى سنة ٦٨٥هـ – ١٢٨٦م) قد عين موقعها على الخارطة التي وضعها للعراق ، ولكن النسخة التي وصلت الينا من خارطته لم تسلم من تصحيف النساخ – على ما يظهر – فجاءت فيها باسم «منارة أم القرى» . وقد فات واضع أطلس « العراق في الخطوط القديمة » التنبيه أو الاشارة الى ذلك .

وقد ظل موضع هذه المنارة محتفظا باسمها حتى بعد أن زالت وانطمست معالمها ، فعلى بعد حوالي ١٤ كيلومترا من الرحبة توجد منطقة تسمى حتى يومنا هذا بـ « أم كرون » ولا يعرف غالبية الناس اليوم سبب تسميتها بهذا الاسم .

منارات «ملكشاه» الأخريات

لم تكن هذه المنارة هي الوحيدة التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي ، فقد بنى منارة أخرى في بلاد ما وراء النهر (٢) ولم يبلغنا من أخبار هذه المنارة شيء غير هذا .

ويذهب بعض المؤرخين الى ان هذا السلطان بنى منارات كثيرة ، فيقول حمد الله المستوفي : « انه صنع في ايران وتوران منارات كثيرة من حوافر الحمر الوحشية » ويروي النيسابوري والراوندي عن الخاتوني : « ان السلطان ملكشاه أمر بأن يبنى في كل موضع وأرض ومتصيد في العراق وخراسان منارات من حوافر الغزلان وحمر الوحش ، وكذلك في ولاية ما وراء النهر وبادية العرب وخوزستـــان . وترك آثـــارا في أصفهان ونواحيها أينما وجد متصيدا » .

منارة «شمس»

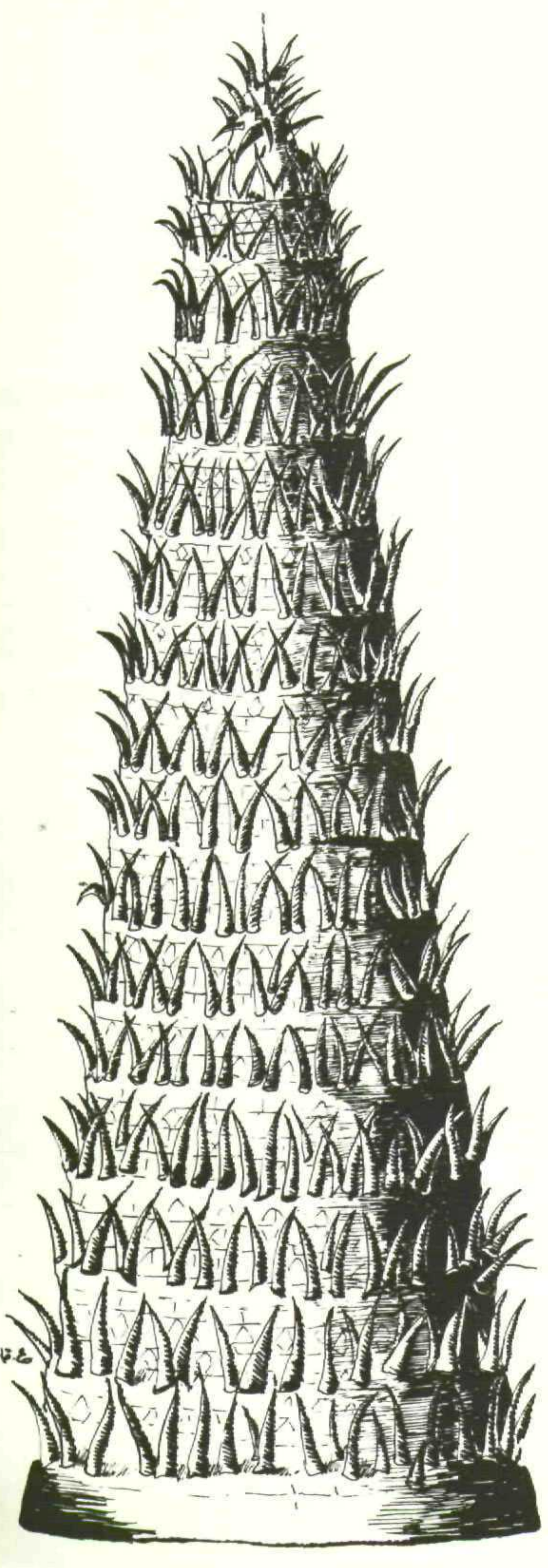
وكما ان السلطان « ملكشاه » لم يكن أول من ابتدع هذه المنارات ، كذلك فانه لم يكن آخر من بنى هذا النوع من المنارات . فيوجد في ايران الآن ، شمال غربي مدينة خوى – التي تبعد عن العاصمة طهران بنحو ٧٧٧ كيلومترا منارة مبنية من القاعدة حتى القمة برؤوس الغزلان تعرف باسم « منارة شمس » . وقد كانت هناك سابقا منارة أخرى على غرارها ، وبين الاثنتين قبة من الذهب على قبر شمس الملك . ولكن القبة واحدى المنارتين قد خربتا وزالتا أثر بعض الحوادث ، والمنارة الباقية قد سقط قسم من أعلاها وتخرب حوضها ، ويسميها الناس « كله آهو » أي « رؤوس الغزلان » .

و « منارة شمس » هذه ايرانية الطراز ، فهي أسطوانية الشكل وليست مخروطية كمنارة القرون ، وذات حوض وسلم داخلي ، وقد ثبت فيها رؤوس الغزلان بحيث وضع بين كل بضع طابوقات رأس غزال أحكم تركيبه حتى ليخيل للرائي انه جزء من طبقات البناء .

ولم تعرف الأسباب أو الدوافع التي حدت الى بنائها . ويرجع العلامة « علي أصغر حكمت » نسبة هذه المنارة الى « شمس الدين الجويني » وزير « أبقه خان » المغولي ، وقد قتل سنة (٦٨٣هـ – ١٢٨٤م) .

منار «كلّه»

وفي العصر الصفوي بنيت في مدينة أصفهان منارة من هذا النوع أيضا ، كانت تسمى بـ « منار كلّه » ، وقد طغى اسمها هذا على الحارة التي بنيت فيها ، وقد بادت ، فلا وجود لها الآن . ووصفها الرحالة الذين شاهدوها ، ومنهم الرحالة العربي « العباس بن علي المكي الحسيني » الذي تحدث عنها في كتابه « نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس » ، فقال : « .. وأما حارة منار كله فانها نزهة الغريب الموله . ومعنى « منار كلّه » يعني منارة الرؤوس ، والحارة تنسب الى المنارة ، وطولها خمسون ذراعا . وكلها مبنية برؤوس الغزلان وأنواع الوحوش . وهي من عجائب الزمان في أصفهان . قيل أن الشاه



رســم تخيله الفنان لمنارة القرون التي شاهدها الرحالة العربي « ابن جبير » اثناء عودتـه من اداء فـريضة الحج ، وهي مبنية من الطابوق وقد ثبتت فيها القرون

(١) الشيهم هو القنفذ

(٢) هي ما يعرف اليوم بجمهورية « أوزبكستان »



منارة الحيران ، التي بناها الامبراطور المغولي « جلال الدين أكــبر » في مدينة « فاتلبور سينكري » تذكارا لفيــله الحربي الذي أحرز على ظهره النصر على خصمه «خان زمان » . وهي شبه مخروطية ومزدانة بأنياب الفيلة المغروزة فيها .

منارة « كلـه » وتعني منـارة الرؤوس ، ويرجع عهد بنائها الى العصر الصفوي . وهي التي نسب المستشرق « شاردن » بناءها الى الشاه « اسماعيل » ، ووصفها الرحالة العربي « العبـــاس بن علي المكي الحسيني »بأنها نزهة الغريب الموله . ويبلغ طولها خمسون ذراعا وكلها مبنية برؤوس الغزلان .

« عباس الكبير » خرج يوما الى الصيد فاصطيد له هذا القدر ، فأمر أن تبنى به هذه المنارة . وكانت زيارة المكي لأصفهان سنة (١١٣٢هـ - ١٧٢٠م) .

ولكن المستشرق « شاردن » نسب بناءها الى الشاه « اسماعيل » أو الشاه « طهماسب » وسماها بـ « منار شاخ » ، فقد قال عنها : « من الأبنية العجيبـــة التي رأيتها في أصفهان في محلـــة « دردشت » ، منارة في وسط ميدان هناك تسمى « منار شاخ »(٣) ، محيطها ٢٠ قدما ، وارتفاعها ٦٠ قدما ، ومن أسفلها الى أعلاها جماجم الغزلان والقنص الجبلي نصبت بين الجص والنورة . والمعروف ان الشاه « اسماعيل » أو الشاه « طهماسب » في أحد مصايده في « هزار دره » قرب أصفهان قد طارد هو والصيادون الصيد من ٢٠ فرسخا ووصلوا الى هنالك ، وقد صادوا من الكثرة ما أمر الشاه أن تصنع من رؤوسها منارة . وقد بنى المعمار الذي أمر بهذا ، تلك المنارة في ثماني ساعات » .

ان كلام المستشرق « شاردن » هذا قد يوهم بأنه يتحدث عن منارة أخرى في أصفهان ، ولكن لم تعرف فيها ، في ذلك العصر ، الا منارة واحدة . ويتفق ما كتبه السائح الايطالي « بي بترو دلا واله » عنها مع ما ذكره المكي ، فقال : « في أصفهان منارة يسمونها (منار كله) بنيت من رؤوس الماعز الجبلي الذي أصطيد في يوم واحد من الشاه أو أحد المنسوبين اليه .. » . وكانت زيارته لأصفهان في أيام الشاه عباس الكبير سنة ١٦١٦م .

ان نسبة هذه المنارة الى الشاه اسماعيل أو الشاه « طهماسب » لا يوجد ما يؤيده ، أما الشاه عباس فقد كان الصيد احدى الهوايات المحببة اليه ، فكان اذا ما فرغ من شؤون المملكة السياسية والادارية وغيرها مارس لعبة الصولجان ، أو رمي « البرجاس » ، والصيد ، أو بعض الألعاب الأخرى . وكان يعد - علاوة على المصايد الصغيرة في أثناء أسفاره - مصائد كبيرة في كل سنة ، فيمضي عدة أيام في المتصيدات ، وكان يشترك في تلك الرحلات عدة آلاف شخص من القرى المجاورة للمتصيد . ولكثرة ما كان يساق من القرى والنواحي من حيوانات الى موضع الصيد فان عددا كبيرا منها يقتل بحيث يصل هذا العدد أحيانا الى أكثر من عشرين ألفا . فقد بلغ عدد ما اصطيد منها في أحدى المرات ٣٢ الفا ، كان من بينها حوالي ٢٠ الفا من الغزلان والظباء والماعز الجبلي وأمثالها ، و ٦ آلاف ذئب وخنزير وحيوانات وحشيـــة أخرى و ٦ آلاف غزال وظبي . اذن فمن المحتمل جدا أن تكون « منار كله » ثمرة احدى المصايد الكبيرة أمثال هذه .

وقد ترك لنا المستشرق « شاردن » صورة لمنارة أصفهان ، يبدو منها أنها كانت مخروطية قليلا ، وذات حوض وسلم ، وقد وضعت فيها الرؤوس كاملة .

منارة "الحيران"

ويمضي بنا الحديث الى الكلام عن منارة أخرى من هذا القبيل هي « منارة الحيران » التي بناها الامبراطور المغولي « جلال الدين أكبر » في مدينة « فاتلبور سينكري » ، المدينة الملوكية التي أسسها بنفسه في سنة (٩٨٧هـ - ١٥٧٩م) ، وأراد أن تكون هذه المنارة تذكارا لفيله الحربي وأحسبه ذلك الفيل الذي أحرز على ظهره النصر على خصمه « خان زمان » أحد القواد الكبار . فقد كان « أكبر » مشغولا باخضاع ثورة البنجاب عندما خرج عليه هذا القائد ، فعاد « أكبر » الى شواطىء « كنكا » ، حيث كان خصمه يتحصن في الجانب الآخر ، وكان الموسم موسم فيضان وأمطار وسيول ، فكان « خان زمان » مطمئنا الى ان الأمبراطور « أكبر » لم يستطيع الوصول اليه في مثل هذه الأيام . ولم يجد « أكبر » سفنا تنقله الى الجانب الآخر ، فألقى بفيله الى النهر وهو راكبه ، والأمراء والقواد من حوله يعارضونه في هذه المجازفة الخطيرة ، ولكنه لم يبال ، وأخذ معه عددا قليلا من الجند فعبروا النهر ليلا ، ولما أصبح الصباح هجم بجنده على القائد « خان زمان » ، فقتله وتفرق جنده .

ومنارة « الحيران » مزينة بأنياب الفيلة التي غرزت فيها ، وهي مخروطية قليلا ذات حوض وسلم ، وقاعدتها لم تزين بالأنياب ■

(٣) منارة القرون

أخبار الكتب

* ظهرت دراسات أدبية جديدة ، منها : « التركيب اللغوي للأديب » ، وهو بحث في فلسفة اللغة وجماليتها للدكتور لطفي عبد البديع ، و « السيرة : تاريخ وفن » للدكتور ماهر حسن فهمي ، و « الفلسفة الاجتماعية عند العقاد » للأستاذ عبد الفتاح الديدي .

وتصدر قريبا للأديب السعودي الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار دراسة عنوانها « صديقي العقاد » تشمل جوانب شخصية وعامة من حياة هذا الأديب العملاق الراحل .

* في باب التراجم والسير ظهرت طائفة من الكتب ، منها : « سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة » للأستاذ عمر عبد الجبار ، و « الدكتور محمد حسين هيكل : حياته وتراثه الأدبي » للأستاذ طه عمران وادي ، و « شخصيات عربية معاصرة » للأستاذ ابراهيم البعثي ، و « ابن باديس : حياته وآثاره » وهو في ٤ أجزاء من تأليف الأستاذ عمار الطالب وقدم له الأستاذ مالك بن نبي . كما يصدر للأستاذ أنور الجندي كتاب عن الأعلام عنوانه « الجيل في أعلامه » .

* من الدواوين الشعرية الجديدة التي ظهرت مؤخرا « تسابيح » للأستاذ علي الجمبلاطي ، ومسرحية شعرية عنوانها « سولار » للأستاذ محمد الفيتوري ، وطبعة ثانية من ديوان « حيرة » للأستاذ ماجد الحسيني .

* ظهر للعلامة الراحل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني كتاب نفيس عنوانه « المعقول واللامعقول » تناول فيه تناولا أخلاقيا واجتماعيا وفلسفيا ظواهر السلوك الانساني ، ما كان منها سويا وما كان شاذا غير معقول .

* من بين الكتب التي تبحث في الأدب الروائي ظهرت هذه الطائفة : « المجيدي الضائع والحاجة فلحة » وهو مجموعة أقاصيص للأستاذ محمد سعيد دفتردار ، و « تمضي الأيام » وهو مجموعة أقاصيص للأديبة سميرة بنت الجزيرة العربية ، و « قصص عصرية من الهند » ترجمها الأستاذ خليل جرجس خليل ، و « يوم عاد أبي » مجموعة أقاصيص للأستاذ رشاد دارغوث ، و « مجموعة سعيد تقي الدين » ، وهي المجموعة الروائية الكاملة لهذا الأديب الراحل ، و « خمس جرائد لم تقرأ » وهي مجموعة أقاصيص للأستاذ مجيد طوبيا . كما ظهرت روايتان للأديب المهجري الأستاذ أنيس بقلة هما « جوزفين » و « الوجه الداخلي » ، ورواية « سفينة الموتى » للأستاذ ابراهيم الناصر ، ومسرحية « الاسكندر المقدوني أو قصة مغامرة » تأليف تيرانس راتيجان وترجمة الأستاذ محمد كامل كمالي ومراجعة الدكتور محمد سمير عبد الحميد .

* من الدراسات الاسلامية المختلفة التي ظهرت أخيرا « مواقف اسلامية » للدكتور عبد العزيز كامل ، و « المجتمع الاسلامي » للدكتور مصطفى عبد الواحد ، و « الاسلام شريعة الله الخالدة » للأستاذ عبد العظيم منصور ، كما يصدر للأستاذ أنور الجندي كتاب « أصالة الفكر الاسلامي في مواجهة الغزو الثقافي » .

* صدر للاستاذ محمد قنديل البقلي كتاب كبير بعنوان « وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية » جمع فيه طائفة غير قليلة من الأمثال المتشابهة في الأمصار العربية المختلفة .

* حقق الدكتور حسن حبشي كتاب « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لمحمد بن تقي الدين الأيوبي .

* من الكتب الطبية والنفسية صدرت هذه المجموعة : « التحليل النفسي للأطفال » من تأليف آنا فرويد وترجمة الأستاذ محمد كامل النحاس ، و « يوميات طبيب » للدكتور صبري القباني ، و « الكولسترول » تأليف هنري باشيكو وترجمة الدكتور يوسف جورجي جبرائيل ، و « أسرار الحياة » تأليف أناتولي شفارتز وترجمة الأستاذ زكريا فهمي .

* أصدر المجمع العلمي العراقي كتيبا عن فقيده الراحل « الدكتور مصطفى جواد » يتضمن سيرة حياة هذا العالم الجليل والكلمات التي ألقيت في حفل تأبينه .

* ترجم الأستاذ وديع عبد الله قسطون كتاب « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » الذي وضعه طبيبان شقيقان هما الأخوان « رسل » . وقد علق عليه بشروح مسهبة وزوده بطائفة من الصور التاريخية الفنية ، وكتب مقدمة الكتاب الأستاذ عبد الله يوركي حلاق .

* في الفنون صدر كتابان هما « تاريخ العمارة والفنون الاسلامية » للدكتور توفيق أحمد عبد الجواد ، والجزء الثالث من كتاب « قصة الفن التشكيلي » للأستاذ محمد عزت مصطفى وقد تناول فيه عصر النهضة .

* ترجم الأستاذ محمد منير موسى كتاب المستشرق كراتشكوفسكي المعنون « مع المخطوطات العربية » الى اللغة العربية .

* أصدر الدكتور أحمد محمد عون كتابا جديدا بعنوان « الأزهر في ألف عام » .

* أصدر الأستاذ حسن عبد الشافي كتابا نافعا لأمناء المكتبات موضوعه « الاعداد الفني للكتب في المكتبات .. الفهرسية والتصنيف » .

* في المحاسبة ظهر كتاب « نظرية الاثبات في المراجعة » للأستاذ شوقي رياض ابراهيم وكتب مقدمته الدكتور متولي محمد الجمل ■

كتب مهداة

حظيت مكتبة القافلة مؤخرا بهذه المجموعة من المؤلفات :

* « كلمات متناثرة » للأستاذ عبد الله الحمد الحقيل .

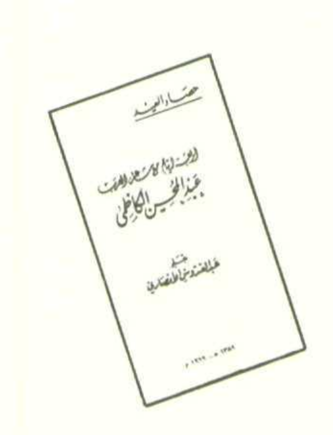
* « الانسان » و « وهج الشباب » و « جلنار » وهي ثلاثة دواوين للشاعر ابراهيم خليل الغلاف.

* « رحلة الى الأندلس » للأستاذ ناجي جواد .

حصاد الكتب

أربعة أيام مع شاعر العرب

عبد المحسن الكاظمي



تأليف : عبد القدوس الانصاري

عرض وتعليق :

الاستاذ عبد العزيز الرفاعي

تنشط المكتبة المحلية الآن في المملكة العربية السعودية ، عن ذي قبل ، وتنتعش حركة التأليف فيها ، وهي حركة ، أرى أنها تستحق الترحيب والتشجيع من قبل النقاد ما وسعهم الى ذلك سبيل . كما أرى أن من حق المؤلفين على النقاد ، أن لا يلتمسوا في انتاجها الكمال ، وأن يكتفوا بما فيها من نوى طيبة ، تدل على ان الركب يسير في الاتجاه الصحيح .

ويسهم أدباء الرعيل الأول بنصيبهم في انعاش المكتبة المحلية ، ولهؤلاء أصالتهم الأدبية ، وخبراتهم ، واتساع آفاقهم الثقافية . ويبدو لي ان القراء عندنا أكثر تطلعا وتلهفا الى نتاج هذا الجيل من الأدباء ، اذ طالما نادت الصحف بأن يضطلع هذا الجيل بدوره كاملا في انهاض الحركة الثقافية والفكرية في البلاد .

والأستاذ عبد القدوس الأنصاري ، وهو في مقدمة هذا الرعيل ، يمتاز بخصبه الأدبي ، سواء عن طريق مجلته التليدة « المنهل » أو عن طريق مؤلفاته المتعددة التي كان من أحدثها هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، والذي يمثل حصاد أربعة أيام فحسب ، هي أيام فترة العيد قضاها الأستاذ المؤلف مع الشاعر « عبد المحسن الكاظمي » .

ولعل مما يضفي أهمية خاصة على هذا الكتاب ، ان هناك نوعا من التعايش الفكري بين المؤلف والشاعر ، فقد كان الكاظمي أحد الشعراء العرب الذين كانت لهم شهرتهم في أنحاء العالم العربي ، وذلك في الفترة التي كان فيها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري ومعاصروه يشقون في صمود ، طريقا للأدب في المملكة العربية السعودية .

أربعة أيام أنتجت هذا الكتاب ، تلك حقيقة وصفها المؤلف نصب عيني كل قارىء ، ولعله عنى بها النقاد قبل القراء ، ولذلك لم أستطع وأنا أعير صفحات الكتاب وفصوله ، أن أغفل هذا الاخطار المسبق ، وبالتالي لم أستطع أن أتخلى عن التماس العذر للمؤلف ، كلما وقفت وقفة تأمل طويلة ، عند فصل أو رأي ، متمنيا ان لو كان غيره محله ، فما أعتم أن أقول : أليس هذا الكتاب حصيلة أربعة أيام فقط .. ؟

لقد تجاوز حجم الكتاب حدود المائة صفحة من الحجم الكبير ، وحفل بالكثير من الفصول المتنوعة ودل على جهد ملموس ، اذ رجع فيه المؤلف الى تسعة عشر مرجعا ، بينها عدد من المراجع الرئيسية ، وهو جهد ولا يمكن التغاضي عنه .

صحيح ان هناك تعايشا فكريا بين جيل الأستاذ الانصاري ، وجيل الشاعر الكاظمي ، وان الكتاب ذاته دلنا على ان الأستاذ الانصاري ، قديم الاعجاب بالكاظمي ، فهل يسوغ لي لطول الصحبة الفكرية بين الأديبين ، ان ازعم ان هذا الكتاب لم يكن حصاد أربعة أيام فحسب ، بل هو حصاد أعوام عديدة ، أنعقدت فيها أواصر الصداقة الفكرية بين الأديبين ؟ كان حتما اذن ، أن يعطينا الأستاذ الأنصاري هذا الكتاب ، بعد طول اختمار وانتظار ، ولا ضير علينا بعد ذلك أن يضعه في أربعة أيام ، فقد تجمعت مادته ، وفكرته ، وعناصره في سنوات طوال .

ومع ذلك فسأظل أذكر ، وأنا أدرس الكتاب اليوم ، انما كتب على عجل ، وفي أربعة أيام فقط . وحسبنا ما قاله المؤلف بين يدي الكتاب « هذه دراسة عابرة .. لا أقول انها كاملة وشاملة لكل نواحي شاعرية شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي، ولا لحياته ، ولكني أقول : انها تعطي ملامح عن شاعريته وعن حياته ، وبيئته التي عاش بها » .

اذن ، حسبي أن أجد في هذه الدراسة العابرة ، عطاء فكريا جديرا بالتقدير ، وفصولا جيدة كهذا الفصل الذي أجده في صفحة (٩) بعنوان « خيوط من الشعر القديم في شعر الكاظمي » ، الذي تناول الألفاظ التي تربط شعر الكاظمي بالشعر العربي القديم ، وتشف عن تأثره به تأثرا كبيرا . كما أشار — في اقتضاب — الى التعابير والتشبيهات المفضلة عند الكاظمي .

ومن الفصول الجيدة التي تدل على تأمل وعمق ، فصل « وصف الكاظمي » ، ص ١٠١ ، فقد كشف عن ناحية هامة ، هي ان الكاظمي لم تكن تستثيره الناحية الجمالية في الكون والطبيعة ، فلم يهتم بوصف شيء منها ، على الرغم من أنه نشأ في بلاد الرافدين ، وعاش على ضفاف النيل ! أو بتعبير آخر ، ان شيئا من هذا القبيل لم يبد على شعره .

ومن الفصول الجيدة أيضا « الصديق الأثير » وهو يتحدث عن الصداقة المتينة التي كانت تربط بين الكاظمي ، والشيخ « علي يوسف » صاحب جريدة « المؤيد » ، كما يتحدث عما تعرضت له هذه الصداقة أحيانا من عوارض ، كدرت بعض صفائها . ويورد شواهده الشعرية في الحالتين .

ولهذا الفصل علاقة بفصلين آخرين وددت أن

لو ضمت الثلاثة بعضها الى بعض لتمثل بحثا عن العلاقات الانسانية عند الكاظمي ، فهناك فصل « أليف مألوف » ص ٤٧ ، وآخر «وفاء الكاظمي» ص ٩٨ ، وقد تحدث الأستاذ الأنصاري في الأول عن صديقي الكاظمي الأثيرين ، « عبد القادر المغربي » ، و«سليم سركيس» ، وهو فصل مقتضب جدا ، ومع اقتضابه ، فقد استنتج فيه المؤلف ، ان الكاظمي ، كان عارم النفس ، سريع الغضب ، واستشهد بالقصيدة العتابية التي وجهها لصديقه «علي يوسف» ، ولكنه لم يفصل القول عن هذه القصيدة ، ولا عن الصداقة التي كانت تربط بين الكاظمي وبين « علي يوسف » الا بعد ذلك بفصلين ، حينما تحدث عن « الصديق الأثير » . ولعل «علي يوسف» كان يتمتع بمنزلة دونها منزلة صديقين أثيرين آخرين هما : المغربي ، وسليم سركيس .

أما فصل « وفاء الكاظمي » فانه يشير الى صداقة الكاظمي ، لكل من « علي يوسف » و « سليم سركيس » ، وان كان يضيف اليهما هنا أصدقاء آخرين . وهذا الفصل هو الآخر على جانب من الاقتضاب .

وعلى أي حال ، فهذه ناحية تنسيقية محضة وليست صميمية .

ولقد كان فصل « ذكريات الوطن الأول » من جياد الفصول ، عدا عن كونه من أمتعها . فقد لمس فيه المؤلف جانبا انسانيا عند النازح ، الذي فارق بغداد الى مصر ، التي اتخذها وطنا ثانيا ، مخلفا الى جوار الرافدين ذكريات صباه وشبابه . وقد أجاد المؤلف اختيار شواهده على ظاهرة الحنين هذه ، وهي من أعمق العواطف الانسانية ، ومن أكثرها اثارة للشعراء . وقد أعجبني قول الكاظمي :

قالوا : سلا أوطانه
وأخو الصبابة ليس يسلو
ذكراك يا وطن الصبا
ذكراي أرحل أم أحل

أما الأبيات التي أوردها من قصيدة « قافية » ، « ألا خبر من ثنايا العراق ؟ » فان في بعض ألفاظها غرابة .. وان راق بعضها كقوله :

هل الدار بعدي كعهدي بها
يباكرها العارض المغدق ؟

ومن ناحية تنسيقية أيضا وددت ان لو ضم هذا الفصل عن حنينه الى وطنه الأول ، الى فصل آخر ، جاء في أخريات الفصول بعنوان « اندماج الكاظمي في مصر » ، فان بين الفصلين ترابطا وثيقا . ولو ان قارئا تصفح الكتاب ، فقرأ الفصل الأخير ، دون أن يطلع على الأول ، لظن ان الكاظمي ، قد انبت عن وطنه تماما ، فلم تعد تربطه به عاطفة الحنين . أما القارىء المتتبع فقد يظن في بادىء الأمر ان بين الفصلين تعارضا ، ولكن تنتفي شبهة التعارض ، لأن اندماج الكاظمي في وطنه الجديد ، لا يتنافى مع حنينه الى وطنه الأول ، وأحسب ان لو ضم الفصلان في بحث موحد لوجد المؤلف الفرصة سانحة ، للحديث عن هذه النقطة بالذات .

ومما يتصل بالتنسيق أيضا ، فصل « قضت الصبابة » ص ٤١ ، فهو من صفحة واحدة لا غير ، وكنت أفضل أن يكون هناك فصل خاص بمدائحه ، يضم ما قاله في محمود سامي البارودي ، وفي سعد زغلول ، ومحمد عبده ، وغيرهم .

* * *

مهما يكن الأمر فقد بذل الأستاذ الانصاري جهدا قيما ، وفي وقت وجيز جدا ، لاعداد هذه الدراسة العابرة الطريفة . وكان من حصيلته فيها فصول جيدة ، كما أسلفت ، وهي حسبنا كسبا . واذا كنت أطمع في أن تكون لهذه الدراسة طبعة ثالثة قريبة المدى ، فاني أرجو أن تتناول جوانب أخرى من البحث لم يتطرق اليها المؤلف الفاضل ، أو تطرق الى بعضها في شيء من الايجاز .

وعلى سبيل المثال ، أذكر وقفات يسيرة وقفت عندها ، وتمنيت أنه لو وجدت الجواب على تساؤلاتي :

* في فصل « شاعر العراق » جانب من ترجمة حياة الشاعر ، كما أوردها « روفائيل بطي » الذي أطلق عليه لقب « شاعر العراق » ، ترى هل كان الكاظمي شاعر العراق حقا في جيله ذاك الذي كان العراق يغص فيه بمشاهير من شعرائه ؟ كنت أود أن يتعرض الأستاذ المؤلف ، لهذه النقطة ، ولو بالاشارة العجلى .. الا ان كان يقر روفائيل بطي « على اطلاق هذا اللقب ..؟

وجدير بالذكر أن المؤلف نفسه أشار في ص ١٣ ، الى أن الصحافة أطلقت لقب « شاعر العراق » على الزهاوي فأيهما كان شاعر العراق بحق ؟ أو أي شعراء العراق كان أحق بهذا اللقب؟.

* ظاهرة الانسجام والسهولة والامتناع التي تحدث عنها الأستاذ المؤلف في ص ٣٤ في فصل « ذكريات الوطن الأول » ، فقد قال عن السهولة لدى الكاظمي :

« وهي سهولة محببة يمتاز بها عن سواه من شعراء عصره كل الامتياز ، لقد بلغ فيها الذروة ، وفاق البهاء زهير ، ولم يصل الى مستواه فيها لا « محمد حافظ ابراهيم » ، ولا « خليل مطران » ولا « الأخطل الصغير » ..

هل يسمح لي المؤلف الفاضل بأن أشك في هذا؟ لا ، لأن الأستاذ الانصاري لم يعقد مقارنات بين ظاهرة السهولة عند الكاظمي ، وبين الآخرين ممن عدّد . فهذا المطلب ، على أهميته لا تتسع له دراسة عجلى ، وانما لبعض ما هو مشهور عن شعر البهاء زهير ، الذي يجري كالماء انسيابا ، ولأن حافظ ابراهيم كان يضم الى السهولة وضوح المعنى ، وانسياق الطبع ، وحسن اختيار الألفاظ ، وهذه الظاهرة الأخيرة اعني حسن اختيار الألفاظ ، لا تتوفر عند الكاظمي توفرها عند حافظ ..

أما الأخطل الصغير ، فلا أضعه في هذا الصف ، ذلك لأنه من شعراء المعاني .

* عقد المؤلف فصلا عن المقدمتين اللتين حظي بهما ديوان الكاظمي الثاني ، بعنوان «مقدمتان للديوان » ، ولكن معظم هذا الفصل كان عن مقدمة الديوان الأول ، وهي للعقاد . أما الحديث عن المقدمة الثانية وهي لروفائيل بطي فقد جاء في فصل تال بعنوان « شاعر العراق » ، وبغض النظر عن الناحية التنسيقية في الموضوع ، فقد كان بودي ، ان لو عقد الأستاذ المؤلف مقارنة بين المقدمات الثلاث ، وأعطى رأيه في كل منها .

* وشاعر العرب ، هذا اللقب الذي أطلق على الكاظمي ، كما أطلق على فؤاد الخطيب ، ما تاريخه ؟ وكيف أطلق ؟ ومن أطلقه ؟ موضوع طريف ليت أستاذنا عالجه .

وبعد ، فقد تركت هذه الدراسة الطريفة في نفسي أثرا طيبا ، وامتعتني بالحديث عن تاريخ جدير بالحفاوة ، ونقلتني الى أجواء شعرية جميلة ، عن طريق نماذج جيدة من شعر الكاظمي ، كقوله :

ولقد حسبت أحبتي
فوجدتهم كثروا وقلوا
وذكرتهم في حين قد
نسي الوداد أخ وخل ..

وكان من مكاسبها عندي ، ان ردت شاعرا قديما كالأستاذ الأديب الباحث « محمد سعيد العامودي ، الى الشعر ، فجاءت قصيدته في مقدمة الدراسة في تحية الكتاب والكاتب الكبير جميلة رائعة ■

خط القطيف - بقيق رقم «٥»

أسلوب جديد في مد خطوط الأنابيب

إن التطور في عمليات الزيت من حيث حفر آبار جديدة ورفع طاقة الانتاج والطلب على نوعيات المنتجــات يدعو ، على الدوام ، الى مزيـد من التوسعات والاضافــات في المنشآت والمرافق . وتجري هذه التوسعات أو الاضافات عادة ضمن برامج مخططة توضع باستمرار لتواكب هذا التطور . ويتم تنفيذ هذه البرامج على مراحل مختلفة حسب مقتضى الحاجة .

لقد حفرت شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) المزيد من الآبار المنتجة للزيت في حقلي بقيق والغوار ، وقد رافق ذلك اجراء توسعات في شبكة خطوط الأنابيب وتركيب مضخات أكبر لايصال الزيت الى المستهلكين . فبالاضافة الى الخط الأولي ، القطيف – بقيق رقم « ١ » ، البالغ قطره ٣٠ بوصة ، والممتد بين بقيق وملتقى خطوط الأنابيب في القطيف ، أضيفت ثلاثة خطوط متوازية لمحاذاته ، وأصبحت شبكة الأنابيب بين القطيف وبقيق بذلك تتألف من أربعة خطوط . لكن على الرغم من اضافة هذه الخطوط الثلاثة ، بقيت هنالك مشكلة قائمة . فبينما استمرت الكميات المنتجة من الزيت الخام تزداد ، لم تكن هذه الزيادة كبيرة الى حد يبرر انشاء خط اضافي جديد . وفي الوقت نفسه لم تكن الخطوط الأربعة الموجودة كافية لنقل المزيد من الكميات المنتجة وتحمل ضغط أكثر .

بيد أن مهندسي خطوط الأنابيب استطاعوا ايجاد وسائل للتغلب على مثل هذا النوع من المعضلات ، وقاموا بتطبيقها على طول الطريق بين بقيق وملتقى خطوط الأنابيب في القطيف . فبدلا من انشاء الخـــط الخامس ، وهو خط القطيف – بقيق رقم « ٥ » ، وانجازه دفعة واحدة ، شرعوا بالعمل فيه على مراحل مجزئة ، مبتدئين من نهايته في ملتقى الخطوط . فكلما أنجز تمديد جزء منه ، ربط ، بواسطة وصلة ، بخط القطيف – بقيق رقم « ٤ » المحاذي له . وبهذه الطريقة يتحول قسم من الزيت المتدفق في خط القطيف – بقيق رقم « ٤ » الى ذلك الجزء من خط القطيف – بقيق رقم « ٥ » الذي تم تمديده وربطه .

وهذه الطريقة التي اتبعت في انشاء خط القطيف – بقيق رقم « ٥ » لها ميزات خاصة نافعة ، لأنها تجعل كميات الزيت المتدفقة في أنبوب واحد تجري في خطين ربط أحدهما جزئيا بالآخر. وهذان الخطان ، اللذان ربط أحدهما جزئيا بالآخر ، يكونان أكثر قدرة لنقل شحنة واحدة من الزيت بدلا من خط واحد ، لأن الاحتكاك الناتج عن حركة جريان الزيت يتوزع بينهما ، مما يؤدي الى تخفيف الضغط المضاد في مركز الضخ ، وجعل المضخات قادرة على ضخ كميات أكثر من الزيت خلال جميع الأنابيب القائمة .

وقد تم تمديد الخط الجديد الذي يتراوح قطره بين ٤٠ و٤٢ بوصة تحت الرمال مسافة ٤٢ ميلا بين بقيق وملتقى خطوط الأنابيب في القطيف ، التي تربط حقول الانتاج في أرامكو بمعمل التكرير وفرضة الشحن برأس تنورة . وكان الخط يمد على مستوى تكوينات الأرض الطبيعية بطول الطريق ، وعندما تصادف منعطفات أو التواءات في الطريق يتم حني أوصال الأنابيب حالا بواسطة معدات هيدروليكية لتتمشى مع طبيعة تكوينات الأرض . ويعتبر الخط الجديد ، القطيف – بقيق رقم « ٥ » ، من أكبر خطوط الأنابيب ، من حيث القطر ، التي أنشأتها أرامكو حتى الآن ■

عيسى مسلم